المكتبة الاجتماعية

# الأنثروبولوجيا الاجتماعية

تأليف
دكتور عبد الحميد لطفي

١٩٦٨



دار المعارف بمصر

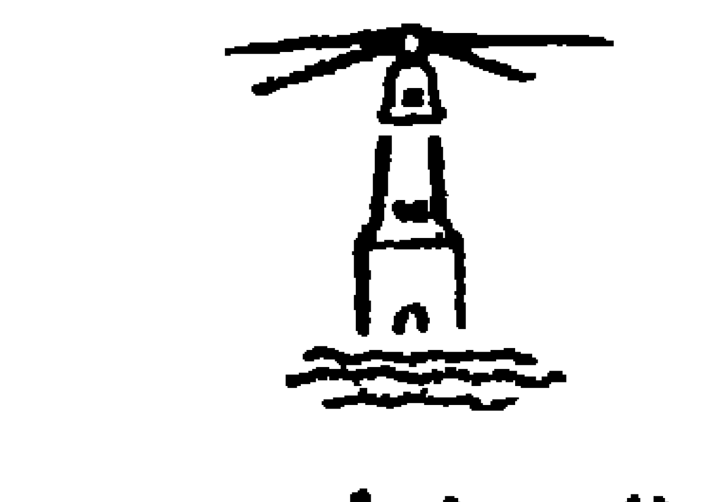
# الأنثروبولوجيا الاجتماعية

تأليف

دكتور عبد الحميد لطفي

دكتوراه الآداب في علم الاجتماع
بمرتبة الشرف الأولى من جامعة الاسكندرية
أستاذ علم الاجتماع المساعد بجامعة عين شمس

١٩٦٨



دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ شارع كورنيش النيل ج . ع . م

بسم الله الرحمن الرحيم

# كلمة المؤلف

أنها لفرصة طيبة أن أتقدم لمواطنى وإلى المكتبة العربية عامة بهذا الكتاب فى علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، وهو علم يعتبر حديثا بين العلوم إذا علمنا أنه لا يزال يجتاز المائة عام الأولى من عمره ، وعلى ذلك فلا غرابة أن يكون عدد الكتب التى تتضمنها المكتبة العربية فى هذا المجال ضئيلا جدا إذ لا يزال هذا العدد مما يمكن عده على أصابع اليد ، ليس فى الانثروبولوجيا الاجتماعية فحسب ، بل وفى علم الانثروبولوجيا عامة .

ومن هذه الكتب التى سبقنى فى نشرها أساتذتى أو زملائى كتاب « الانثروبولوجى » للأستاذ الدكتور ابراهيم رزقانه رئيس قسم الجغرافيا بجامعة القاهرة ، وكتاب «الأنثروبولوجيا الاجتماعية » الذى نشره بالانجليزية الاستاذ الدكتور على أحمد عيسى رئيس قسم الدراسات الاجتماعية بالجامعة الليبية ، وكتاب « البناء الاجتماعى » الذى نشره الدكتور أحمد أبوزيد الاستاذ المساعد بجامعة الاسكندرية، كما قام أيضاً بترجمة كتاب بعنوان «الانثروبولوجيا الاجتماعية » عن كتاب بهذا الاسم للعالم الانجليزى ايفانز بريتشارد. ولقد كان لهؤلاء جميعا الفضل فى أن يكون للمكتبة العربية نصيب من هذا العلم ، وأنه لما يسعدنى أن أشاركهم جهودهم بنشر هذا الكتاب، الذى أردت أن يكون فى مجموعه تقديما لعلم الانثروبولوجيا الاجتماعية حتى إذا أراد القارىء أن يتعمق

فى هذا المجال أمكنه ذلك بشىء كبير من السهولة واليسر عن طريق استشارة المراجع الأخرى التى حرصت على أن يحتوى الكتاب أسماء الكثير منها .

ولما كان علم الأنثروبولوجى ينقسم إلى قسمين رئيسيين هما الأنثربولوجيا الجسمية والأنثروبولوجيا الحضارية فقد راعيت أن ينقسم الكتاب أيضاً إلى بابين رئيسيين يختص الباب الأول بعلم الأنثروبولوجيا الجسمية والباب الثانى بعلم الأنثروبولوجيا الاجتماعية . وعلى الرغم من أن عنوان الكتاب هو الانثروبولوجيا الاجتماعية فقد فضلت أن يكون للكتاب نصيب من الانثروبولوجيا الجسمية باعتبارها مقدمة لا بد منها لفهم ودراسة الانثروبولوجيا الاجتماعية .

وينقسم الباب الاول من الكتاب إلى أربعة فصول يتناول الاول منها التعريف بعلم الانثروبولوجيا بقسميها الجسمى والحضارى ، كما يتناول الفصل الثانى تتبع نشأة الانسان القديم عن طريق بقاياه الضئيلة التى عثر عليها ، أما الفصل الثالث فيعتبر امتدادا للفصل الثانى من ناحية أنه تتبع لنشأة الانسان ولكنه فى هذا الفصل الانسان الحديث ونشأة حضاراته وانتشارها . أما الفصل الرابع فقد خصص لدراسة الحضارة الانسانية عامة ، وقد استعنت فى هذا الفصل بآراء عدد كبير من العلماء الذين كتبوا فى هذه الناحية وخاصة فى الجزء بعنوان « الحضارة تجريد معنوى للسلوك » ، وفيه تحليل عميق لماهية الحضارة من وجهة نظر عدد من العلماء الذين تخصصوا فى دراسة هذا الموضوع .

وإذا انتقلنا إلى الباب الثانى من الكتاب وجدناه وقد انفرد بدراسة

الانثروبولوجيا الاجتماعيه ، وهو يتكون أيضا من اربعة فصول تضمن الفصل الاول تقديما لعلم الانثروبولوجيا الاجتماعية والتمييز بينها وبين علمين شديدى الارتباط بها وهما علما الانثروبولوجى والاجتماع ، وذلك لكى تتكون فى ذهن القارىء صورة واضحة للعلوم الثلاثة وحتى لا يخلط بينها .

ويتناول الفصل الثانى من الباب الثانى الدراسات التى قامت حول التطور الحضارى وهى الدراسات التى قامت فى جملتها فى القرن التاسع عشر ، والتى تعتبر الأساس الذى قام عليه علم الأنثروبولوجيا الاجتماعيه ، وقد تضمن هذا الفصل جانبا من أبرز الدراسات التطورية التى قام بها رواد هذه المدرسة ، ثم يختتم هذا الفصل بالنقد الذى يمكن أن يوجه إلى هذه الدراسات .

أما الفصل الثالث من الباب الثانى فيتناول نوعا آخر من الدراسات الانثروبولوجية وهى تلك التى يطلق عليها الدراسات الانتشارية والتى تركز فى دراستها على أثر الانتشار فى التكوين الحضارى وذلك بعكس المدرسة السابقة التى كانت تركز على أثر التطور فى التكوين الحضارى ، ولما كان الفكر الانتشارى قد ظهر فى مراكز ثلاثة ، فى الولايات المتحده ، وفى إنجلترا وألمانيا ، فقد كان لكل من هذه المراكز نصيب من هذا الفصل مع نقد كل منها .

ويختتم الباب الثانى من الكتاب بالفصل الرابع الذى خصصته لدراسة المدرسة الوظيفية فى الانثروبولوجيا الاجتماعية ، وقد تعرضت فى هذا الفصل لآراء كل من راد كليف براون ومالينوفسكى الذى ينسب كل منهما إلى نفسه تأسيس المدرسة الوظيفية ، وكانا متنافسين من هذه

الناحية ، والواقع أنه من الصعب أن نحدد أيهما كان له الفضل فى تأسيس هذه المدرسة ، فالاثنان كانا معاصرين لبعضهما تماما كما كان يؤمنان بمبادىء واحدة فيما يتعلق بأهمية المدرسة الوظيفية ، هذا علاوة على أن الاثنين كانا متأثرين بآراء كل من دوركايم وريفرز ، ولكن مع ذلك يمكن أن نقول بأن رادكليف براون كان سباقا على مالينوفسكى لأنه قام بدراسته الميدانية التى حدد فيها مذهبه الوظيفى فى جزر اندامان فى سنة ١٩٠٦ أى قبل أن يقوم مالينوفسكى بأول دراسة ميدانية له وكانت فى جزر تروبرياند فى المحيط الهادى والتى بدأها خلال الحرب العالمية الأولى ، ثم ينتهى الفصل الرابع بنقد للمبدأ الوظيفى .

ويسرنى فى تقديم هذا الكتاب أن أذكر بالخير وأن أعترف بجميل أساتذتى الذين كونونى انثروبولوجيا سواء ما تعلق بذلك بالقسم الأول أو بالقسم الثانى وأخص بالذكر منهم الاستاذ الدكتور سليمان حزين والاستاذ الدكتور ابراهيم رزقانه الذين تلقيت عليهما أول محاضرات تتعلق بهذا العلم أثناء دراستى بقسم الجغرافيا بجامعة الاسكندرية ( ١٩٤٤ — ١٩٤٧ ) . أما عن دراساتى فى الانثروبولوجيا الاجتماعية فكانت على يد المرحوم البروفسور رادكليف براون أثناء دراستى بمعهد العلوم الاجتماعية بجامعة الاسكندرية فى سنة ١٩٤٩ ، كما تلقيت فى نفس المعهد برنامجا بالفرنسية فى علم الاثنوجرافى على يد الدكتور كازنيف أحد الاساتذة الزائرين بالمعهد فى سنة ١٩٤٩ .

أما رسالتى للدكتوراه والتى بدأت أعد لها فى سنة ١٩٥٥ فكانت

باشراف أحد كبار الانثروبولوجيين المصريين وهو الاستاذ الدكتور على أحمد عيسى وكان أستاذا لكرسى الاجتماع والانثروبولوجيا بجامعة الاسكندرية .

إلى هؤلاء جميعا أقدم كل الشكر والتقدير والله ولى التوفيق ؟

عبد الحميد لطفى
الاسكندرية فى ١ / ٩ / ١٩٦٨

# الاهـــــداء

إلى زوجتي ورفيقة دراستي :

رشدية عيسى

# محتويات الكتاب

الموضوع | الصفحة



## الباب الثانى

## الانثروبولوجيا الاجتماعية

الموضوع — الصفحة

# الباب الأول

# علم الانثروبولوجيا عامة

# تعريف بعلم الأنثروبولوجيا

- مقدمة
- علم الانسان الجسمانى
- علم الانسان الحضارى

**مقدمة :**

يعتبر علم الأنثروبولوجيا من أحدث العلوم نشأة إذا علمنا أنه لايزال يجتاز المائة سنة الأولى من عمره ، وقد أخذ هذا العلم تسميته عن أصلين يونانيين الأول *Anthropo* بمعنى إنسان ، والثانى *Logia* بمعنى علم ، وتعنى الكلمة بتركيبها هذا علم الانسان . ولكن هل ينفرد علم الأنثروبولوجيا بدراسة الانسان حسب تسميته هذه ؟ الواقع أن هذا العلم لاينفرد بهذه الدراسة لأن هناك كثيرا من العلوم الاخرى التى تشترك معه فى دراسة الانسان ومنها علوم الحياة كعلم التشريح وعلم وظائف الأعضاء وعلم الأجنة ، وكلها تهتم بدراسة نواح معينة من جسم الانسان ، وكذلك الامر بالنسبة لعدد آخر من العلوم التى تهتم بدراسة التصرفات الانسانية مثل علم الاجتماع والعلوم الاقتصادية والسياسية والنفسية وغيرها من العلوم الاجتماعية .

وإذن لاينفرد علم الانثروبولوجيا بدراسة الانسان وانما يشترك فى ذلك مع عدد كبير من العلوم الاخرى . ويتجه علم الانثروبولوجيا فى دراسته هذه اتجاهين أحدهما طبيعي والآخر اجتماعي ، فهو من ناحية يدرس الانسان كأحد أعضاء المملكة الحيوانية ، ويدرسه من ناحية أخرى كعضو فى مجتمع ، كما أن علم الانثروبولوجيا لايقتصر فى دراسته على انسان بالذات أو على مجتمع معين أو مرحلة بذاتها من التاريخ ، وانما يهتم بدراسة الانسان عامة فى جميع الازمنة والعصور ، ما كان منها قبل التاريخ أو بعده ، القديم منها والحديث . وفى أول بقعة من الارض عرفها الانسان .

ويدخل فى مجال الانثروبولوجيا على هذا الاساس ، كل ما مر على التركيب العضوى للانسان من مراحل تطور خلالها ، وكذلك كل ما مر به من تطور

وتغير حضارى منذ أن عرفت للانسان حضارة حتى وقتنا الحاضر . ومن هنا ظهرت أهمية الدراسات المقارنة التى احتلت جانبا هاما من الدراسات الانثروبولوجية ، فعالم الانثروبولوجيا يكتشف ويصف النواحى الجسمانية التى يختلف فيها الانسان عن الكائنات الحية الاخرى ، وكذلك النواحى التى تختلف فيها جماعة انسانية عن جماعة انسانية أخرى ، كما يدرس أيضا الحضارات الانسانية ، وهو هنا يركز اهتمامه على أوجه الاختلاف وأوجه الشبه بين هذه الحضارات كما يجدها بين الجماعات الانسانية المختلفة ، ثم يحاول أن يخرج من كل هذه الدراسات بقواعد عامة أو قوانين تتحكم فى تكوين وتطور المجتمعات والحضارات الانسانية .

ومما سبق كان لابد أن ينقسم مجال الدراسة فى علم الانثروبولوجيا إلى قسمين رئيسيين ، يركز الاول اهتمامه على الانسان ككائن طبيعى وقد أطلق على هذا القسم اسم الانثروبولوجيا الجسمية أو علم الانسان الجسمى ، *Physical Anthropology* ، ويركز القسم الثانى اهتمامه على الانسان ككائن اجتماعى ، وقد أطلق على هذا القسم اسم الانثروبولوجيا الحضارية أو علم الانسان الحضارى ، *Cultural Anthropology* ، وسنقدم بايجاز لكل من هذين القسمين الرئيسيين .

# علم الإنسان الجسمي

يهتم هذا العلم بدراسة الانسان من ناحية كونه حيوانا ، وهو على هذا الاساس يهتم بتاريخ وتطور وطبيعة تركيب الانسان الجسمى من أقدم العصور حتى الوقت الحاضر ، وهو فى سبيل هذا يبحث فى الانواع المختلفة التى ظهرت للانسان منذ أن بدأ يظهر على سطح الارض ، والاشكال التى توجد له فى الوقت الحاضر ، كما يبحث فى مدى اختلاف هذه الاشكال بعضها عن بعض ، مع محاولة تفسير هذه الاختلافات فى النهاية .

وإذن يهتم علم الانسان الجسمى بتتبع تاريخ الخصائص والصفات الجسمية للانسان ، ولتحقيق هذه الغاية اخذ العلماء يبحثون فى كل مكان من الارض عن أية آثار للانسان القديم . وبمقارنة الاشكال المختلفة التى يعثرون عليها بالاشكال الحالية للانسان الحديث ، وتتبع دراسة الصفات الجسمية يمكن معرفة فى اى الجماعات الانسانية ظهرت صفة معينة لأول مرة ، وماذا حدث لصفة جسمية بالذات ظهرت لأول مرة بين جماعة من الناس إذا حدث واتصلت هذه الجماعة بجماعة اخرى لها صفات جسمية مخالفة .

وعلى الرغم من وجود بعض الفجوات التى لم يتمكن الانثروبولوجيون من ملئها حتى الان فيما يتعلق بتتبع تاريخ الانسان الجسمى ، فقد إمكن لهذا العلم ان يجيب على كثير من الاسئلة التى كانت تراود الانسان منذ القدم ولو بطريقة جزئية ، تلك الاسئلة التى كانت تحاول الكشف عن متى وأين ظهر أقدم مخلوق بشرى لاول مرة ، ووصف هذا المخلوق وتعيين مدى تشابهه او اختلافه عن غيره من المخلوقات ، وكيف تغيرت او تطورت الصفات الجسمية للانسان خلال الازمنة المتعاقبة على وجه الارض .

ويتميز الانسان فى الوقت الحاضر على اختلاف أجناسه الرئيسية بين قوقازى وزنجى ومغولى بوحدة تركيبه الاساسى عامة ، وإن كان هذا لايمنع أنه فى الوقت نفسه يختلف فى بعض المظاهر أو الصفات الخارجية ، وهذه لاتشكل اختلافا جوهريا بين الاجناس الثلاثة ، ذلك لان أى انسان يعيش فى الوقت الحاضر انما ينتمى إلى فصيلة واحدة هى تلك التى اصطلح على تسميتها «الانسان العاقل ***Homo Sapien*** » الذى عرف تاريخ نشأته وتطوره بشىء كبير من التفصيل .

ولم تكن فصيلة الانسان العاقل هى الوحيدة التى ظهرت للانسان وإنما سبقتها فصائل عديدة للانسان القديم كانت تختلف اختلافا واضحا فى تركيبها عن فصيلة الانسان العاقل فى عدد كبير من النواحى ، وكانت هذه الفصائل تعيش فى العصور البعيدة الاولى لمرحلة ماقبل التاريخ ، أما إذا تعمقنا أكثر من ذلك فى هذه العصور فلا بد أن نجد مرحلة أخرى لم تكن قد ظهرت فيها أية فصيلة انسانية ، وهذا يدفعنا إلى الاعتقاد بأن الانسان الحالى قد نشأ عن جدود غير انسانية كانت سابقة فى وجودها على الانسان .

وتدخل دراسة العملية التى نشأ فيها الانسان عن جدود لا ينتمون إلى الفصيلة الانسانية ، ثم دراسة العملية التدرجية التى أصبح الانسان خلالها يختلف عن سائر الحيوانات الاخرى ، ثم العمليات التى اخذ الانسان خلالها يختلف فيها عن بعضه هو نفسه ، والعوامل التى كانت سببا فى ظهور هذه الاشكال المختلفة للانسان، تدخل كل هذه الدراسات فى مجال علم الانثروبولوجيا الجسمى .

وعلى الرغم من أن الانسان لابد قد انحدر عن أصل غير انسانى كما أشرنا اليه من قبل ، فاننا نجده فى الوقت الحاضر وقد احتل وضعا فريدا فى المملكة الحيوانية ، فهو مع اتفاقه مع أغلب الحيوانات فى كثير من المظاهر والخصائص العضوية الا أنه يتميز فى الوقت نفسه بكثير من الصفات التى تفتقر

اليها باقى الحيوانات حتى ما كان منها أقرب أقربائه فى هذه المملكة الحيوانية . ويمكن أن نوضح أهم هذه الخصائص أو المميزات فيما يلى :

١ — تركيب مخى فريد يتميز بتطرفه فى التعقيد عما هو عليه بين الحيوانات الأخرى .

٢ — المشى والوقوف فى وضع تام الاعتدال .

٣ — تركيب فريد للقدم يساعد الانسان على هذا الاعتدال .

٤ — حوض أكثر اتساعا وأقل عمقا .

٥ — سيقان طويلة بالنسبة للجسم وبالنسبة لطول الذراعين .

٦ — سلسلة فقرية مرنة ، أمكن للانسان بمرونتها أن يجمع بين الاستقامة والانثناء .

٧ — تركيب خاص لليدين أمكن للانسان بواسطته أن يستخدمهما لتناول الأشياء وليس للمشى .

وبالاضافة إلى كل هذه الخصائص الجسمية نجد للانسان وضعه الفريد فى المملكة الحيوانية من ناحية تصرفاته ، فهو أينما وجد ومهما تميزت حضارته بالبساطة، وجدناه، يملك كثيراً من الأدوات والآلات التى يستخدمها فى حياته اليومية، كما نجد له نظاما معينا ، بسيطا أو معقدا للحصول على غذائه وتقسيم العمل بين أعضاء جماعته، كما نجد له نوعا من التنظيم الاجتماعى والسياسى والدينى ، وعدداً من العقائد والطقوس ولغة للكلام على الأقل إن لم تكن للكتابة أيضا. كل هذه النواحى نجدها ممثلة عند كل المجتمعات الانسانية مهما تطرفت فى بساطتها ، فكل مجتمع انسانى له من الخصائص الحضارية مالا يمكن مقارنته بما نجده عند أية فصيلة حيوانية أخرى مهما تميزت هذه الفصيلة بتقدمها بين غيرها من الحيوانات .

وإذا عدنا إلى مجال علم الأنثروبولوجيا الجسمية وجدناه يدرس ناحية أخرى تتمثل فى الطرق أو الوسائل التى أمكن للانسان بها أن يتكيف مع البيئة التى يعيش فيها ، والآثار التى تركها هذا التكيف على تكوينه الجسمى ، ولا نعنى بالبيئة هنا الارض والبحر والفضاء وغيرها من النواحى الطبيعية فقط وإنما ماتضمه هذه البيئة أيضا من كائنات حية تشارك الانسان حياته ومعيشته من حيوانات بعضها قوى مفترس ، والبعض الاخر مستأنس ضعيف ، وهذه الحيوانات لم يعش الانسان بدونها أبدا فى هذه الحياة لأنها سابقة فى الوجود عليه ، كما تشمل البيئة الطبيعية أيضا المملكة النباتية بأشكالها المختلفة والتى تشارك هى الاخرى الانسان حياته على سطح الارض ، ولقد كان وجودها على الارض سابقًا لوجود الانسان أيضا . وإذن فدراسة البيئة التى يعيش فيها الانسان لابد أن تشمل دراسة الحيوان والنبات من ناحيه تأثير كل منها على الانسان جسميا .

ومن ناحية أخرى لما كان الانسان ينتمى إلى أسرة أو قبيلة أو أمة معينة، كان لابد أن يكون هناك نوع من التفاعل بين القبائل المختلفة أو بين الأمم المختلفة ، ولهذا التفاعل بالضرورة أثره على تكوين الانسان الجسمى ، ومن هنا يحاول علم الانثروبولوجيا أن يعرف ماذا يحدث للشعوب المختلفة عندما تتصل أو تختلط جنسيا بشعوب أخرى ، وهل هناك أنواع أقوى من غيرها بمعنى أن فى استطاعتها أن تورث صفاتها لغيرها من الشعوب ، وهل هناك صلة بين تركيب الانسان الجسمى وبين عدد من الصفات أو المتغيرات الاخرى كالمزاج والذكاء وغيرها من النواحى النفسية مثلا ؟ وتدخل دراسة كل هذه المسائل فى مجال علم الانثروبولوجيا الجسمية .

وتقتصر دراسة علم الانثروبولوجيا الجسمية فى معالجته لانسان ماقبل التاريخ على بقايا الانسان العظمية ، متحجرة كانت أم غير متحجرة ، ويسمى

هذا الفرع من الدراسة « علم العظام *Osteology* » (١). أما فى معالجة علم الانثروبولوجيا الجسمية للأجناس المعاصرة فقد اتسع مجال دراسته عن ذلك بعد أن أصبحت هذه الدراسة تشمل الجسم كله بكافة أعضائه كالتركيب العضلى ولون العين والجلد ولون الشعر وشكله ، كما تشمل أيضا أعضاء الجسم الداخلية ، وهو يستخدم فى سبيل ذلك وسائل جديدة منها طرق التشريح المقارن *Comparative Anatomy*. ولكى تكون المقارنة موضوعية وجدنا عالم الانثروبولوجيا الجسمية وقد استخدم أسسا احصائية متفقا عليها ، بعضها توزيعى وبعضها نسبى والبعض الآخر عن طريق المتوسطات وتسمى كل هذه العمليات القياسية *Anthropometry* .

ولا تقتصر الانثروبولوجيا الجسمية فى الوقت الحاضر على هذه البيانات الاحصائية وانما اتسعت مجالات اهتمامها أكثر من ذلك لكى يدخل ضمنها أيضاً الكشف عن أثر التشابه أو الاختلاف فى وظائف أعضاء الجسم بين الاجناس البشرية المختلفة مثل عملية تمثيل الغذاء وسرعة النبض ونسبة النمو ، وطريقتها فى ذلك استخدام علم وظائف الاعضاء المقارنه *Comparative Human Physiology* الذى تخصص فى دراسة العمليات الديناميكية للأعضاء الحية . ومعالجة البيانات التى نحصل عليها عن طريق هذه الدراسة احصائيا تكون فى حد ذاتها فرعا مستقلا من فروع الانثروبولوجيا الجسمية هو ما يطلق عليه « قياس الحياة *Biometrics* » (٢)

ولقد كان وضع علم الانثروبولوجيا الجسمية ضعيفا خلال القرن التاسع عشر وذلك فيما كان قاصرا على قياس وتصنيف صفات الانسان الجسمية من النواحى الخارجية فقط ، حتى تغير امره ابتداء من السنين الثلاثينية من القرن

---

١ — *Osteon* = *bone*

٢ — ( *Bios* = *life* + *Metron* = *measure.* )

العشرين حين اتسع مجال هذا العلم بعد أن أصبح يهتم فى الوقت نفسه بعمليات النمو والوظائف العضوية ، ثم بعد أن اتسع مجاله أبعد من ذلك وخاصة بعد قيام الحرب العالمية الثانية و بعد أن ظهرت كثير من الآراء الجديدة والطرق الجديدة التى صاحبت العالم فى تقدمه وخاصة ما تعلق منها بدراسة فصائل الدم ودراسة الأجنة . وبهذه الأسلحة الجديدة أمكن للأنثروبولوجيا الجسمية أن تزداد عمقا فى الدراسات التى تتعلق بطبيعة الاختلافات التطورية بين الانسان .

# علم الإنسان الحضارى

إن المقصود بدراسة الحضارةهو دراسة التصرفات الاجتماعية للانسان وما يصاحب هذه التصرفات من انتاج . ويسمى العلم الذى يهتم بكل هذا علم الأنثروبولوجيا الحضارية أو علم الحضارة Culturology .

ويعتبر الأنسان أكثر الحيوانات تقدما من الناحية الحضارية وأحدثها تكوينا من ناحية كونه آخر ما انتهى اليه التطور العضوى خلال بليون ونصف من السنين . والناحية الفريدة التى يمتاز بها الانسان هى مقدرته على اختراع أشكال جديدة من التصرفات التى لاتخضع لأى أساس وراثى أو غريزى ، وحتى حاجاته العضوية البيولوجية كحاجته إلى الطعام وارضاء دوافعه الجنسية ، نجده حرا فى اختيار الطرق المختلفة التى يشبع بها هذه الحاجات .

ويقول كلايد كلوكهون [١] فى ذلك :

*" Culture arises out of human nature , and its forms are restricted both by man's biology and by natural laws . it is equally true that culture channels biological processes - vomiting, weeping , sneezing , the daily habits of food intake and waste elimination . "* (٢)

---

(١) استاذ علم الانثروبولوجيا بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة . تعلم فى فينا واكسفورد وهارفارد ، كما قام بابحاث ميدانية فى اليونان وبين بعض القبائل الهندية فى الولايات المتحدة وخاصة قبائل النفاهو . ألف عددا من الكتب منها :

1 — *Navaho Witchcraft , 1944* .

2 — *The Navaho , 1946* .

3 — *Mirror for Man , 1949* .

4 — *Culture , 1952* .

(٢) *Clyde Kluckhohn Mirror For Man ( N. Y. , 1949 ) p. 21.*

وتحاول المجتمعات الانسانية جهدها لكى تحد من تصرفاتها الغريزية واستبدالها بتصرفات أخرى لاتخضع للغريزه ، وما الحضارة سوى هذه النماذج المختلفة المتكاملة المكتسبة للتصرفات غير البيولوجية التى تميز أعضاء المجتمع .

*"Cultre is the sun total of integrated learned behaviour patterns which are characteristic of the members of a society and which are therefore not the result of biological inheritence. "*(1)

ويتضح مما سبق أن الحضارة تظهر نتيجة للاختراع الاجتماعى ، كما أنها تنتشر وتكتسب عن طريق الانتقال والتعلم ، هذا علاوة على أنها غير غريزية.

ولما كانت الحضارة تظهر نتيجة للاختراع الاجتماعى كان طبيعيا أن تختلف فى مظهرها من مجتمع لآخر وأن يكون لكل مجتمع حضارته التى يتميز بها ، وهذا يتمثل فى اختلاف كثير من نماذج التصرف من مجتمع لآخر وإن كان هذا لا يمنع وجود بعض العناصر العامة لحضارة تشترك فيها كل المجتمعات .

ويمكن أن نمثل لاختلاف نماذج التصرف من مجتمع لآخر إذا أخذنا ثلاثة مجتمعات وقارناها من ناحية تصرف أفرادها إذا أرادوا تحية صديق عزيز لم يروه من زمن طويل ، فنجد الفرد فى مجتمع جزر الأندامان فى خليج البنجال يبكى بشدة ، بينما يحتضن الفرد فى المجتمع المصرى صديقه ويقبله ، أما فى الولايات المتحدة فيكتفى الفرد بأن يمسك يدى صديقه ويضغط عليهما . ومن هذا المثال نرى أنه على الرغم من وحدة الواقعة والظروف المحيطة بها فى المجتمعات الثلاثة ، يختلف التصرف فى كل منها وذلك نتيجة للحضارة السائدة فى كل مجتمع منها .

وتبدو الحضارة فى تصرفات الأفراد وعقائدهم واتجاهاتهم ، والتى هى فى الوقت نفسه أكثر عمقا من ذلك لأنها فوق مستوى الافراد من ناحية أن أى

---

(1) Adamson Hobel, *Man in the Primitive World* (N. Y. 1958) p.7.

فرد انما يولد وينمو فى ظل النماذج الحضارية السائدة التى تشكله أو يتأثر بها على الاقل .

ويمكن التمييز بين نوعين من الأشكال الحضارية ، مادى وغير مادى *Material & Nonmaterial* ، وإن كنا فى الواقع نجد ان الحضارة التى هى مجموعة التصرفات غير مادية فى العادة ذلك لأن مايطلق عليه حضارة مادية لايخرج عن كونه انتاجا للتصرف الحضارى ، فالأدوات والأسلحة والمبانى والتماثيل والانتاج الفنى ؛ وإن كانت تدخل كلها ضمن أشكال الحضارة المادية إلا أنها فى الوقت نفسه ليست إلا إنتاجا للافكار والمهارات المختلفة التى تمثل نماذج التصرف التى تتكون منها الحضارة . وإذن فكل إنتاج مادى نجده فى الواقع نتيجة لأحد نماذج الحضارة غير المادية ، كما نجد أيضا أن لكل إنتاج معين وظيفته المتفق عليها فى المجتمع، فعصا الحفر في المجتمعات البدائية تستعمل فى الوقت نفسه مجدافا للقوارب الخفيفة وعصا للمشى وسلاحا ، مما يتضح معه أن اختلاف الوظائف وليس الشكل فقط هو محور اهتمام دارس الحضارة .

وتعريف أدامسون هوبل السابق للحضارة يصف نماذج التصرف بأنها متكاملة *Integrated* ذلك لان الحضارة ليست مجرد طرق عشوائية منفصلة للتصرف وانما نجد أن هناك دائما نسق معين للحضارة *System* ، وأن كل اجزائها متصلة بعضها ببعض عن طريق تكامل بدرجة معينة وتوافق من نوع خاص . والكل على هذا الأساس يكون وحدة متماسكة ، وإن كان هذا لايمنع وجودها فى الوقت نفسه على درجة معينة صغيره أو كبيرة من عدم التماسك *Inconsistsncy* تختلف من حضارة لأخرى ،وهذا يعنى أن التكامل رغم وجوده دائما إلا أنه لايكون أبدا مطلقا أو كاملا .

وتنقسم الانثروبولوجيا الحضارية إلى قسمين تقليديين ، يسمى القسم الاول الاثنوجرافى *Ethnography* ، وتعنى الكلمة بهذا التركيب اللغوى « الكتابة عن الاجناس » ، وذلك على أساس أنها جمعت بين كلمة *Ethnos* بمعنى جنس ، وكلمة *Graphien* بمعنى كتابة . ويطلق على القسم الثانى الاثنولوجى *Ethnology* وتعنى « علم الاجناس » وقد اختلفت بذلك عن الاصطلاح الاول باستخدام لفظ *dogia* بمعنى علم . وعلى الرغم من التركيب اللفظى أو الاصطلاحى لكل من القسمين فان مجال دراستهما يبعد تماما عما تعنيه الترجمة الحرفية لاسميهما ، لانهما لايدرسان الاجناس *Ethnos* إذ ان هذه الدراسة تدخل ضمن نطاق الانثروبولوجيا الجسمية ، وانما نجدهما يدرسان الحضارات .

هذا ويختلف مجال الدراسة عند كل من القسمين، فعلم الاثنوجرافى تقتصر دراسته على الناحية الوصفية للحضارات ، وعلى وذلك تنحصر مهمته فى مجرد جمع البيانات دون تفسير أو تحليل لها ، على أن يأتى دور الاثنولوجى بعد ذلك لكى يستفيد من البيانات التى يزوده بها الاثنوجرافى ، فيقوم بتصنيفها وتحليلها واستخلاص المبادىء التى تفسر الحقائق الاثنوجرافية وإقامة الفروض والنظريات التى تتعلق بطبيعة التصرفات الانسانية والنماذج الحضارية ووظائفها ، ثم تتحدد تبعا لذلك المشاكل التى يتعين دراستها ، ووضع الطرق والوسائل لمعرفة مدى صحة هذه الفروض أو النظريات .

ومما سبق يمكن ان نقول أن عالم الاثنوجرافى يستخدم فى دراسته وسائل الملاحظة المختلفة بينما يضيف عالم الاثنولوجى اليها طرق التحليل لصياغة واختبار القوانين العلمية .

ويدخل ضمن مجال الاثنولوجى عدد كبير من التخصصات المختلفة كأن نجد دارسين ودراسات متخصصة فى نظم القرابة ونظم الاسرة فى المجتمعات البدائية ، وكذلك الحال فى الدراسات الخاصة بنشاطهم الاقتصادى ونظمهم

القانونية والحكومية والدينية ، كما نجد إلى جوار ذلك عددا من الدراسات المتخصصة فى اللغات والموسيقى والرقص والآداب الشعبية والأساطير وإلى آخر ذلك من نواحى الحضارات الانسانية .

وقد يستعمل فى بعض الاحيان اصطلاح الأنثروبولوجيا الاجتماعية *Social Anthropology* بدلا من اصطلاح الأنثروبولوجيا الحضارية ، وهو استعمال خاطىء إلى حد ما لأن الانثروبولوجيا الاجتماعية كما سنرى فى مكان آخر من هذا الكتاب لاتشكل سوى قسم من أقسام الانثروبولوجيا الحضارية لأن مجال اهتمامها يكاد يقتصر على تنظيم الجماعات الانسانية وبنائها الاجتماعى فى الوقت الذى لاتهتم فيه كثيرا بالمظاهر التكنولوجية المادية للحضارة [1] ، وهى بذلك تكون قد أهملت جانبا معينا مما تتضمنه الحضارة ككل .

---

(١) يطلق اصطلاح *Technology* على الخبرات التى يستخدم الانسان بواسطتها الموارد الطبيعية بقصد تأمين غذائه وصناعته وأدواته واسلحته وملابسه ومسكنه وغير ذلك مما تتطلب حياة فى المجتمع ، وبمعنى آخر يطلق هذا الاصطلاح على الفن الذى يملكه أو المجتمع لتحقيق كل هذه النواحى . وعلينا هنا أن نميز بين التكنولوجى وبين مظاهر الحياة المادية من ناحية أن التكنولوجى عبارة عن فنون أومهارات معينة يملكها أفراد المجتمع بينما نجد أن الثانية هى مجرد الاشياء المادية *Artifacts* وهى ما أطلقت عليها فى الكتاب « المظاهر التكنولوجية المادية » كالمواد المصنوعة والأجهزة والادوات بكل أنواعها والأطعمه المصنوعة والملابس والمساكن بمختلف أشكالها ابتداء من الاكواخ إلى الابراج والمعابد ، وغير ذلك من نواح مادية يستخدمها أعضاء المجتمع والتى لاتخرج عن كونها انتاجا للتكنولوجيا بمعناها العلمى الصحيح .

# الفصل الثاني

# الإنسان القديم

- نشأة الانسان القديم
- بقايا الانسان القديم

# الإنسان القديم

**نشأة الانسان القديم :**

كان ظهور الكائنات الحية على سطح الأرض فى مراحل تدرجية ، من أنواع بسيطة إلى أنواع معقدة ثم إلى أكثر تعقيدا بحيث كانت كل مرحلة نتيجة لما قبلها ومقدمة لما بعدها فى الوقت نفسه دون أن تكون احداها بالضرورة أصلا للأخرى . وعلى ذلك فليس ضروريا أن نقول أن الانسان متطور عن القرد وانما يكون تعبيرنا أكثر دقة إذا قلنا إن القرد كان المرحلة السابقة للانسان مباشرة ، وبهذا يمكننا أن نقرر أن وجود القرد كان مقدمة لوجود الأنسان وليس أصلا له . ولقد مرت القردة نفسها فى مراحل طويلة من التطور بدأت بالنسانيس فى عصر الاليجوسين ثم استمرت فى تطورها خلال المايوسين والبلايوسين حين ظهرت القردة العليا . وهى عائلة من القردة شديدة الشبه بالانسان الذى ظهر فى النهاية بعدها .

ولقد رأى بعض العلماء أن ظهور الانسان كان فى عصر البلايوسين إلا أن هذا الرأى لم يمكن اثباته لأن أقدم البقايا التى عثر عليها للانسان كانت فى عصر البلايستوسين ، بل وفى البلايستوسين الأوسط ، وهى بقايا لانسان كان يعيش منذ حوالى نصف مليون سنة .

ويطلق اصطلاح الانسان القديم على أقدم سلالات أكتشفت للانسان ، وهى سلالات انقرضت تماما ولا يوجد منها فى الوقت الحاضر أية سلالة . وهذا الانسان وإن كان انسانا بالفعل إلا أنه يختلف عن الانسان الحالى من الناحية التشريحية ، وربما يرجع ذلك إلى أنه كان متوحشا ، وكانت له بذلك صفات

جسمية خاصة . فلما أصبح مستأنسا جدت عليه صفات أخرى اختلف بها عن الانسان القديم .

ولقد كان الانسان القديم مرحلة متوسطة بين القردة العليا والانسان الحديث. ويبرز التغير من صفات القرد إلى صفات الانسان فى ثلاث نواح رئيسية ، هى تضاؤل حجم الاسنان وزيادة حجم المخ واعتدال القامة ، إلا أن أهم صفات الانسان التى تميزه عن القردة هى حجم المخ الذى نجد متوسطه عند أرقى أنواع القرده حوالى ٥٠٠ سنتيمتر مكعب بينما يرتفع هذا المتوسط عند الأنسان القديم إلى حوالى ١٠٠٠ سنتيمتر مكعب ثم عند الانسان الحديث إلى حوالى ١٥٠٠ سم٣ .

## بقايا الإنسان القديم

تعتبر بقايا الانسان القديم أو الانسان الحفرى التى تم اكتشافها فى العالم نادرة جدا مما جعل دراستها أمرا صعبا لقلة ما يمكن ان تقوم عليه الدراسة أو المقارنة ، ومن أهم النماذج الحفرية التى عثر عليها :

١ — انسان جاوة ، وعثر على بقايا الانسان المعروف بهذا الاسم العالم الهولندى يوجين ديبوا *Eugene Dubois* وكان ذلك فى سنة ١٨٩١ فى شمال جزيزة جاوة ، وقد اطلق ديبوا على هذا الانسان تسمية « الانسان القرد المعتدل *Pithecanthropus erectus* » ويتميز انسان جاوة بأن جمجمته كانت اكبر من ان تكون لقرد وأصغر من أن تكون لانسان ، ولابد انها كانت بذلك لحيوان يقع بينهما مما جعل ديبوا يعتبره ممثلا لعائلة قائمة بنفسها اطلق عليها الانسان القرد . وعلى الرغم من أن انسان جاوة كان يشبه القرد فى بعض صفاته الا أنه كان يمشى مشية معتدلة ،كما تدل بقاياه على أن طوله كان حوالى ١٧٠ سنتيمترا ووزنه ١٥٠ رطلا ، كما كان بشريا فى اعتدال قامته واشكال مفاصله وفى مشيته المعتدلة ، وإن كانت نقطة اتصال الجمجمة بالسلسلة الفقرية تدل على ان رأسه كانت مدلاة بعض الشىء إلى الأمام ، أما حجم جمجمته فكان ٩٤٠ سنتيمترا .(١)

اما عن مقدرة انسان جاوة العقلية فلا يمكن تقديرها ، ولكن مع ذلك لابد انه كانت له حياة اجتماعية لأن القردة لها مثل هذه الحياة فى الوقت الحاضر ، ومن الجائز ايضا انه كان يتفاهم بطريقة ما . ولقد عثر على بعض

---

(١) القردة ٥٠٠ سم٣ فى المتوسط ، والانسان الحالى ١٤٥٠ سم ٣ .

الأدوات فى الطبقات المعاصرة لتلك التى عثر فيها على عظامه ، ومن المحتمل أن يكون هو صانع هذه الأدوات التى تنتمى فى جملتها إلى صناعة النواة (١) . ولقد ثبت أن انسان جاوة كان يعيش فى نهاية البلايستوسين الأسفل أو بداية البلايستوسين الأوسط فى العصر الحجر القديم الأسفل (٢) .

٢ — انسان الصين ، وقد اكتشفه العالم دافيدسون بلاك *Davidson Black* فى سنة ١٩٢٩ بالقرب من مدينة بكين فى الصين وأطلق عليه اسم «انسان الصين البكينى *Sinanthropus Pekinensis* » . ويرجح أن انسان الصين كان يعيش فى البلايستوسين الأوسط مما يجعله بذلك معاصرا لانسان جاوة .

ويختلف انسان الصين عن انسان جاوة اختلافا لايمكن معه أن نعتبر أحدهما منحدرا عن الآخر . وتدل البقايا الحفرية لانسان الصين على بشريته واعتدال قامته ، كما أنه يعتبر قصير القامة بعد أن دلت بقاياه على أن طوله كان حوالى ١٥٠ سنتيمترا ، وعلى الرغم من أنه كان شديد الشبه بانسان جاوة إلا أنه كانت له من الصفات ماجعله أرقى منه ، ومن هذه الصفات حجم مخه الذى يتراوح بين ١٠٠٠ ، ١٢٠٠ سنتيمتر مكعب ، ورأسه الذى أكثر تراجعا إلى الخلف من رأس أنسان جاوة .

وكان انسان الصين يعيش فى الكهوف وليس فى العراء ، كما تدل حفرياته على أنه كان يستخدم النار لوجود آثارها وبقايا المواقد التى كان يطهو عليها طعامه ، وكان انسان الصين بهذا أقدم دليل على معرفة الانسان للنار واستخدامها كما وجدت معه أيضا آلات غير دقيقة الصنع من الحجر الرملى والصوان ،

---

١ — أول شكل للصناعات الحجرية التى عرفها الانسان .

٢ — يتضمن البلايستوسين الأسفل والاوسط العصر الحجرى القديم الاسفل ، بينما يتضمن البلايستوسين الأعلا كلامن العصر الحجرى القديم الأوسط والعصر القديم الاعلا .

وتوضع هذه الأدوات من ناحية مرتبتها الحضارية فى العصر الحجرى القديم الأسفل ، وهو نفس العصر الذى وضعت فيه أدوات انسان جاوة .

٣ ـ انسان نياندرتال *Homo Neanderthalensis* ، وقد أخذ هذه التسمية عن المكان الذى عثر فيه على بقاياه لأول مرة فى سنة ١٨٥٦ ، وهو كهف فى وادى نياندر بحوض الرور فى ألمانيا ، وإن اكتشفت أولى بقاياه فعلا فى جبل طارق فى سنة ١٨٤٨ .

ولقد أمكن دراسة انسان نياندرتال بشىء كبير من الدقة نظراً لكثرة ما اكتشف له من بقايا فى أماكن مختلفة من العالم على رأسها فرنسا وإسبانيا وشبه جزيرة القرم وفلسطين وشمال إفريقيا ، كما كانت البقايا ممثلة للرجال والنساء والأطفال . وترجع وفرة بقايا انسان نياندرتال إلى أنه كان يدفن موتاه كما كان هو نفسه يعيش فى كهوف ، هذا علاوة على أنه كان يعيش فى أوربا خلال فترة تعتبر حديثة نسبيا لانها تتراوح بين مائة ألف وبين ثلاثين ألف سنة مضت .

وقد امتاز انسان نياندرتال بمخ لم يكن أصغر من مخ الانسان الحديث بل ربما كان أكبر منه فى بعض الحالات وذلك بعد أن وجد أنه يتراوح بين ١٣٠٠ ، ١٦٠٠ سنتيمتر مكعب ، ولكنه كان يتميز فى الوقت نفسه ببعض الصفات البدائية كالرأس المدلاة إلى الأمام ، كما كان ذا وجه يختلف فى صفاته عن وجه انسان جاوة وانسان الصين والانسان الحالى وذلك من ناحية ضخامة جمجمته وسمك عظامها وبروز عظام الحاجبين وعدم وجود عظام الذقن أما عن طول انسان نياندرتال فكان أكثر قليلا من خمسة أقدام ، كما يمكن أن نضيف إلى كل هذه الصفات أنه كان متقوس الظهر قليلا ومنحنى الركبتين .

ولانسان نياندرتال حضارة خاصة أطلق عليها الحضارة الموستيرية

*Mousterian* ، وهى الحضارة التى كانت تسود العصر الحجرى القديم الأوسط فى البلايستوسين الأعلا . وقد وجدت بقاياه داخل الكهوف التى كانت يعيش فيها والتى يدفن فيها موتاه مع بعض آلاته الحجرية ، وربما كان ذلك اعتقادا منه فى خلود الروح أو فى البعث . ولم تكن هذا الظاهرة فردية وانما كانت شائعة فى جميع الكهوف مما يدل على وجود تعاليم دينية وعبارات مشتركة . وربما كان لسكنى الكهوف أثر فى تشابه الحياة الجماعية والحياة الروحية ، كما وجدت هذه الكهوف مزدانة بكثير من الرسوم التى ترجح ايضا وجود نوع من العبادة إن لم تكن تهدف إلى الفن من أجل الفن . ولقد كان لانسان نياندرتال معرفة اكبر بالنار ولابد انه قد استخدمها بقصد الاضاءة الصناعية فى داخل الكهوف ، كما تميز ايضا بمعرفته للصناعات الحجرية الدقيقة ، وكذلك صناعة الشظايا متعددة الاشكال ، وقد تميزت فأسه اليدوية بصغرها عن تلك التى عرفت فى الحضارتين الشيلية *Chellean* والاشولية *Acheulean* وهما الحضارتان اللتان كانتا سائدتين فى البلايستوسين الاوسط .

وكان انسان نياندرتال آخر اشكال الانسان القديم ، إذ تنتمى اشكال الانسان التى جاءت بعده إلى الانسان الحديث *Homo Supienes* .

# الفصل الثالث

# الإنسان الحديث

- اصل الانسان الحديث
- انتشار الانسان الحديث

# الإنسان الحديث

**اصل الانسان الحديث :**

تنتمى أغلب بقايا الانسان التى عثر عليها فى البلايستوسين الأعلا ( العصر الحجرى القديم الأعلا ) إلى الانسان الحديث ، ويكاد يتفق هذا الانسان فى صفاته مع الانسان الحاضر ، إذ لا يختلف عنه إلا فى صفات غير رئيسية ، أما الانسان الحاضر فلم يبدأ ظهوره إلا فى عصر الهولوسين وهو العصر الذى يلى البلايستوسين فى الترتيب ، وقد بدأ الهولوسين منذ حوالى عشرين ألف عام .

ويعتبر الانسان الحديث نوعا قائما بذاته من الفصيلة البشرية . وهو يشمل كل الأجناس التى تعيش حاليا بين شقر وسود وصفر ، ويختلف أو يمتاز عن الانسان القديم فى عدد من النواحى أهمها كبر حجم المخ وصغر حجم الاسنان ووضوح عظام الذقن ورقة عظام الجمجمة وتضاؤل بروز عظام الحاجبين . هذا ولم تعرف تقاطيع الانسان القديم أو الاشكال الأولى للانسان الحديث إلا عن طريق العظام فقط ، وعلى ذلك فلا يمكن إعطاء صورة تامه لها الا إذا عثر يوما ما على نماذج لها مكسوة باللحم ، هذا بالاضافة إلى أن هناك كثير من الصفات التى لا يمكن معرفتها عن الانسان القديم والطلائع الاولى للانسان الحديث كلون البشرة ولون الشعر ومدى غزارته وغير ذلك من الصفات التى لاشك فى أنه كان يختلف عن بعض فى عدد منها .

ولقد وصلتنا معلوماتنا عن انسان البلايستوسين الاعلا عن طريق عدد من النماذج التى أمكن تصنيفها على الوجه التالى :

١ — انسان كرومانيون *Cro-Magnon* ، وقد اكتشفت اولى بقاياه فى سنة ١٨٦٨ بالقرب من قرية كرومانيون بجنوب فرنسا وقد امتاز بجمجمة كبيرة وقامة تصل فى ارتفاعها إلى ١٦٨ سنتيمتر ومخ حجمه ١٦٦٠ ،

سنتيمترا مكعبا ونسبة رأسية قدرها ٧٥ ، اما عن صفاته الاخرى فكان معتدلا كالانسان الحاضر تماما فيما عدا اختلاف طفيف يتمثل فى انثناء ركبتيه قليلا عند المشى . كما كان الجزء الأسفل من ذراعه أطول نسبيا إذا قيس بجزئه الاعلا ، وانسان كرومانيون بصفاته هذه يشبه كثيرا الجنس القوقازى الحالى مما يرجح معه انه جده .

٢ — انسان جريمالدى *Grimaldi* وقد عثر على بقاياه بالقرب من قرية جريمالدى على ساحل الريفييرا وكان معاصرا لانسان كرومانيون ، وبقايا هذا الانسان نادرة جدا ذلك لانه لم يعثر له إلا على بقايا انسان طوله ١٥٠ سنتيمترا وحجم مخه ١٢٦٥ سنتيمترا مكعبا وقد قدر سنه بحوالى ست عشرة سنة ، كما عثر على بقايا امرأة طولها ١٦٨ سنتيمترا وحجم مخها ١٤٥٠ سم[٣] . وتنطبق الصفات الجسمية لانسان جريمالدى على صفات الجنس الزنجى فى الوقت الحاضر ، وعلى ذلك يرجح ان جدود الزنوج كانوا يسكنون اوربا فى هذه المرحلة .

٣ — انسان شانسليد *Chancelade* وقد اكتشفت بقاياه فى قرية شانسلين فى فرنسا ويرجح انه جد المغول لما وجد من علاقة بينه وبين الجنس المغولى المعاصر كما سنرى بعد .

ويحتل الانسان الحديث بأنواعه الثلاثة العصر الحجرى القديم الأعلا ، ويتميز هذا العصر فى اوربا بحضارات ثلاث يمكن ترتيبها حسب قدمها كالتالى :

ا — الحضارة الاوريجناسية *Aurignacian*

ب — الحضارة السولترية *Solitrean*

هـ — الحضارة المجدلينية *Magdalenian*

وكان انسان كرومانيون وجريمالدى معاصرين للحضارتين الاوريجناسية

والسولترية ، وقد نشأت الاولى فى شمال افريقيا ثم انتقلت منها إلى اوربا عن طريق جبل طارق ، وتمتاز بسيادة صناعة الشظايا واختفاء الفؤوس الحجرية ، كما كان الانسان خلالها يعيش فى الكهوف بسيادة احدى الفترات الباردة ، اما الحضارة السولترية فتتفق مع فترة الدفء التى حلت بعد ذلك وقد تميزت بصناعة جديدة من الشظايا وبآلات يغلب عليها شكل اوراق الغار (الصفصاف) اما انسان شانسلين فكان معاصرا للحضارة المجدلينية ، وقد وجد انها تتفق فى كثير من مظاهرها مع مظاهر الحياة عند الاسكيمو ، وهذا ما يعزز وجود صلة علاقة بين انسان شانسلين وبين الجنس المغولى . وقد عاد انسان شانسلين إلى المعيشة فى الكهوف بسبب عودة الفترة الباردة التى لم تكن موجودة اثناء الحضارة السولترية ، وتعتبر الحضارة المجدلينية بذلك عودة للحضارة الاوريجناسية .

والجدول التالى يبين لنا الترتيب الزمنى للحضارات الحجرية حسب زمنها الجيولوجى وحسب الفترات الجليدية وفترات الدفء التى كانت تعقبها .

جدول يبين الترتيب الزمنى للحضارات الحجرية حسب زمنها الجيولوجى وفترة الجليد او الدفء

| البلايوسين | | فجر العصر الحجرى | |
|---|---|---|---|
| البلايستوسين الاسفل | فترة جليد جونز<br>فتر دفيئة<br>فترة جليد مندل | الشيلية | العصر الحجرى القديم الأسفل |
| البلايستوسين الأوسط | فترة دفيئة<br>فترة جليد ريس | الشينية<br>الاشولية<br>الاشولية | |
| البلايستوسين الاعلا | فترة دفيئة<br>فترة جليد فورم الاولى | الموستيرية | العصر الحجرى القديم الاوسط |
| | فترة دفيئة<br>فترة جليد فورم الثانية<br>تقهقر الجليد | الاوريجناسية<br>السولترية<br>المجدلينية | العصر الحجرى القديم الاعلا |
| الهولوسين | | العصر الحجرى الاوسط والحضارات التالية | |

## إنتشار الإنسان الحديث

تعددت أشكال الانسان الحديث واتسع نطاق الجهات التى يسكنها حتى إذا جاء العصر الحجرى القديم الأعلا وجدناه يسكن جميع قارات العالم القديم ، ولكنه ظل مع ذلك مخلوقا نادرا بمعنى أن أعداده كانت محدودة ومبعثرة . ولقد ظل الانسان على ندرته هذه حقبة طويلة من الزمن ، ذلك لأن أعداده لم تبدأ فى الزيادة إلا فى العصر الحجرى الحديث بعد أن ابتدأ فى ذلك العصر يعرف الحياة المستقرة ، تلك الحياة التى جاءت نتيجة لنشأة القوى الثابتة وممارسة حرف لا بد معها من هذا الاستقرار كالزراعة وتربية الحيوان وصناعة الفخار . وقد قدر هكسلى عدد أفراد الانسان خلال العصر الحجرى القديم بما يتراوح بين مليون وثمانية ملايين [1] ، ومن هذين الرقمين يمكننا أن نتصور ضآلة كثافة الانسان على سطح الأرض وقتئذ إذا علمنا أن القاهرة وحدها يسكنها فى الوقت الحاضر حوالى أربعة ملايين نسمة .

وإذا أخذنا بالرأى الذى يقول بأن السلالات البشرية تنحدر كلها عن أب واحد فان هذا الرأى يدعونا إلى الاعتقاد بأن الانسان فى مبدأ الأمر قد تميز بصفات موحدة ، فلما تفرق فى جهات العالم المختلفة أخذت كل جماعة حسب ظروف البيئة التى تعيش فيها تكتسب صفات جديدة حتى إذا تقادم عليها العهد ثبتت لها هذه الصفات التى اكتسبتها وأصبحت جزءا من تكوينها الجسمى . وعلى هذا الأساس انقسم النوع البشرى إلى أجناس لكل منها صفاته الخاصة ، ثم أخذت هذه الأجناس تنقسم فى داخلها إلى شعب نتيجة للهجرة من مكان

---

(١) *J.O Hertzler, The Crisis in the World Population ( N braska, 1956 ) pp. 16 — 21*

لآخر مع ما يصاحب هذه الهجرات فى العادة من اختلاط بالأجناس الأخرى عن طريق الزواج،وقد أخذ عامل الوراثة يعمل عمله بالتدريج فى الصفات الجسمية لكل جنس فخلطها ببعضها حتى أصبح من الصعب أن نجد فى الوقت الحاضر جنسا نقيا .

ولقد حدث مثل هذا الاختلاط فعلا بين المجموعات البشرية منذ نشأة الانسان ، ولهذا كان من الصعب أن نطلق اصطلاح جنس على أية مجموعة من المجموعات البشرية الحالية ، وإنما تطلق هذه الكلمة بقصد التعميم فقط ، أما الجنس الحقيقى فلا وجود له إلا من الناحية النظرية البحتة . وتعنى كلمة جنس بمعناها العلمى الدقيق مجموعة من الناس تشترك فى صفات جسمية واضحة ،ظاهرة كانت أو باطنة . ولا بد إذن عند تصنيف البشر إلى أجناس أن نستبعد الصفات الحضارية كاللغة والدين والعادات وخلافها .

ولقد بلغ من تعدد الصفات الجسمية أن الباحثين لم يستطيعوا الاتفاق على صفة معينة تتخذ دون غيرها أساسا للتصنيف ، فاذا أخذنا لون البشرة مثلا أساسا لذلك وقسمنا الناس إلى بيض وسود وصفر وجدنا المجموعات الثلاث وقد ضمت طوال القامة وقصارها وطوال الرأس وعراضها ، وغير ذلك من مختلف الصفات . ومن أجل هذا وجدت عدة تقسيمات للانسان على أساس الصفات المختلفة التى تتخذ أساسا للتقسيم كشكل الرأس ولون البشرة وطوال القامة ، كما كان لابد من التعميم فى هذه الصفات الجسمية مع ما يختفى وراء هذا التعميم من إختلافات ثانوية كثيرة .

وهذه الصفات الجسمية التى اتخذت أساسا للتقسيم إما أن تكون ظاهرة وتلاحظ بالعين المجردة أو بمجرد النظر إليها ، وإما أن تكون أكثر خفاء من ذلك فتتطلب نوعا خاصا من القياس . ويمكن حصر أهم هذه الصفات فيما يلى:

١ — لون البشرة ، وينقسم الناس من هذه الناحية إلى فئات ثلاث :

(ا) بيض . *Leucodermi*

(ب) سود . *Melanodermi*

(حـ) صفر . *Xanthodermi*

٢ — شكل الشعر ، وهو إما :

(ا) مستقيم *Leiotrichy*

(ب) مموج *Cymotrichy*

(حـ) صوفى *Ulotrichy*

٣ — طول القامة ، ويتراوح الانسان طولا بين :

(ا) قزم وهو من كان طوله أقل من ١٤٨ سنتيمترا .

(ب) قصير وهو من تراوح طوله بين ١٤٨ ، ١٥٨ سنتيمترا .

(حـ) متوسط وهو من تراوح طوله بين ١٥٨ ، ١٦٨ سنتيمترا .

( ى ) طويل وهو من تراوح طوله بين ١٦٨ ، ١٧٢ سنتيمترا .

( هـ ) طويل جداً ، وهو من زاد طوله عن ١٧٢ سنتيمتراً .

٤ — شكل الرأس ، وهى صفة نسبية ينقسم الانسان على أساسها إلى فئات ثلاث هى :

(ا) طويل الرأس *Dolichocephalic* إذا كانت النسبة بين طول الرأس وعرضها أقل من ٧٥ .

(ب) متوسط الرأس *Mesocephalic* إذا تراوحت النسبة بين ٧٥ ، ٨٠ .

(حـ) عريض الرأس *Brachycephalic* إذا زادت النسبة عن ٨٠ .

٥ — بروز الفك ، ويختلف شكل الفك عند الانسان بين :

(ا) بارز *Prognathous*

(ب) غير بارز *Orthognathous*

٦ — شكل الوجه ، ويختلف شكله عند الأنسان بين :

( ا ) طويل *Leptoprosopic*

(ب) متوسط *Mesoprosopic*

(حـ) عريض *Chamaeprosopic*

٧ — شكل الأنف ،ويقدر هذا الشكل حسب النسبة الانفية وهى عبارة عن النسبة بين طول الأنف وعرضها ، وينقسم الانسان على أساس هذه النسبة إلى فئات ثلاث :

( ا ) عريض الانف *Platyrrhine* إذا زادت النسبة عن ٨٥ .

(ب) متوسط الانف *Mesorrhine* إذا تراوحت النسبة بين ٧٠ ، ٨٥ .

(حـ) ضيق الانف *Leptorrhine* إذا قلت النسبة عن ٧٠ .

٨ — شكل العين ، ويقدر هذا الشكل بمعرفة نسبة ارتفاع العين إلى طولها *Orbit Index* ، والعين بذلك تكون :

( ا ) عالية ، إذا زادت النسبة عن ٩٠

(ب) متوسطة ، إذا تراوحت النسبة بين ٨٣ ، ٨٩ .

(حـ) منخفضة ، إذا قلت النسبة عن ٨٣ .

هذه هى الصفات الرئيسية التى تقسم على أساسها الأجناس البشرية، ويمكن أن يضاف إليها عدد من الصفات الثانوية الأخرى مثل لون الشعر ولون العين وتوزيع الشعر على سطح الجسم وغير ذلك من صفات .

وعلى أساس هذه الصفات امكن تقسيم الانسان فى العالم إلى ثلاث مجموعات جنسية كبرى هى مجموعات القوقازيين والزنوج والمغول ، وهى ما تعرف بنفس الترتيب بالبيض والسود والصفر . وتنقسم المجموعة الاولى فى داخلها إلى أربع

شعب رئيسية هى النوردية والألبية والبحر الأبيض والهندوس ، كما تنقسم المجموعة الثانية إلى ثلاث شعب هى المغول الأصليون بشرق آسيا ومغول الملايو بجزر الهند الشرقية والهنود الحمر بأمريكا، أما المجموعة الثالثة فتنقسم إلى شعبتين، شعبة الزنوج فى افريقيا وبابوا وميلانيزيا ، وشعبة الاقزام .

وتضم هذه الاجناس الثلاثة بشعبها المختلفة ٩٩ ٪ من سكان العالم ، أما الباقى وقدره ١ ٪ فيضم شعبا لم يمكن ضمها إلى أى من هذه الأجناس الثلاثة لأنها تجمع من الصفات ما يخرجها من كل هذه المجموعات ، ومن أمثلتها سكان أستراليا الاصليون وسكان بولينزيا .

هذا عرض سريع لما مر به النوع الانسانى من تغيرات جسمية خلال هذه العصور الطويلة من تاريخه ، فاذا ما انتقلت إلى ما مر به من تغيرات حضارية، وجدنا أن حضارة الانسان قدقفزت ابتداء من العصر الحجرى الحديث بخطى واسعة مما جعلها تختلف كثيرا عما كانت عليه فى العصر الحجرى القديم بأقسامه الثلاثة ، ذلك لان العصر الحجرى الحديث قد امتاز بتغيرات أساسية فى المناخ نتيجة لتقهقر الجليد نحو الشمال وسيادة الدفء والجفاف ، وقد بدأ هذا التحول حوالى سنة ٦٠٠٠ قبل الميلاد ولا يزال كذلك تقريبا حتى الوقت الحاضر .

وتعتبر النتائج التى ترتبت على هذا التغير المناخى من أهم العلامات الحضارية التى ميزت هذا العصر، فقد بعث الدفء على انتشار الانسان فى المناطق الشمالية وانتشار العمران تبعا لذلك فى أجزاء جديدة من العالم لم يكن الانسان قد سكنها من قبل، كما ساعد هذا أيضا على اختلاط الجماعات بعضها ببعض، وما صاحب هذا الاختلاط من ظهور سلالات جديدة ، هذا علاوة على أن الامر لم يقتصر على ذلك بل امتد أيضا الى النواحى الاجتماعية بعد أن اتسع مجال اتصالات الانسان بالانسان وقيام العلاقات المختلفة بين الجماعات سواء ما كان من هذه العلاقات سلميا أو عدائيا .

وباستقرار الأحوال المناخية استقر الانسان أيضا وخاصة فى المناطق التى تنتشر فيها الموارد المائية وما يتميز به من وجود النباتات والحيوان ، ولم يصبح الانسان بذلك فى حاجة إلى التجول بعد أن استقر حول مجارى الانهار ، حيث بنى مسكنه ، وكان هذا الاستقرار بداية لنشأة القرى نتيجة لتجمع عدد من هذه المساكن بجوار بعضها . وتعتبر نشأة القرية الظاهرة الأولى التى تميز بها العصر الحجرى الحديث ، وكانت مصر وغرب آسيا من أول الأماكن التى نشأت فيها ما تميز به هذا العصر من ظواهر ، وكان ذلك حوالى سنة ٦٠٠٠ قبل الميلاد ومن المناطق التى عثر فيها على آثار من هذا العصر فى مصر مرمدة بنى سلامة فى شمال غرب الدلتا على حافة الصحراء ، وتعتبر هذه القرية أقدم قرية مصرية معروفة إذا يرجع وجودها إلى سنة ٥٢٠٠ قبل الميلاد ، وكذلك الحال فيما عثر عليه فى الصعيد فى قرية دير تاسا قرب البدارى بمحافظة أسيوط . أما علامات هذا العصر فى أوربا فيرجع تاريخها إلى ما بعد ذلك بثلاثة آلاف من السنين .

وكان لاجتماع المساكن فى القرية أهمية أخرى تتمثل فى ظهور التعاون المشترك فى استغلال البيئة الطبيعية والدفاع ضد المعتدى ، انسان كان أو حيوانا ، كما أوحى هذا الاستقرار باستئناس الحيوان حتى لا يظل الانسان عبداً له يتجول وراءه . وكان استئناس الحيوان هو المرحلة التالية للاستقرار مباشرة ، وهى مرحلة كانت سابقة للزراعة التى اعتبر اختراعها نتيجة أخرى للاستقرار وذلك بعد أن مكن هذا الاستقرار من تتبع أدوار حياة النباتات عاما بعد الآخر ودراسة طبائعها ، فبدأ الانسان يجمع الحبوب البرية ويبذرها بالقرب من مسكنه لكى يحصل على مجموعة جديدة من الحبوب ، والزراعة على هذا الأساس ما هى إلا استئناس للنباتات ، أى تربيته تحت سلطان الانسان على مثال تربية للحيوان .

ولقد فكر الانسان بعد ذلك فى وسيلة تؤمن له الماء فى مسكنه بدلا من

الانتقال إلى النهر كلما احتاج إليه ،وقد هداه تفكيره إلى شيء يحمل فيه مزيدا من الماء إلى مسكنه ، ولم يكن قد توصل بعد إلى صناعة الآنية الفخارية ، هذه الآنية التى توصل الانسان إلى صناعتها بعد أن لاحظ أن الطين فى أماكن المواقد يتصلب ويتماسك ، وقد هدته هذه الملاحظة إلى أن يشكل الطين ويضعه فى النار ليتحول إلى مادة صلبة تحافظ على شكلها الأصلى ، وقد اخترع بذلك ما يسمى بالأوانى الفخارية ، وقد صنع منها أحجاما وأشكالا مختلفة لاستعمالاته المتنوعة. وإذن يعتبر اختراع الآنية الفخارية نتيجة للتوسع فى استخدام النار، إذ على الرغم من أن الانسان قدعرف النار فى الحضارة الأشولية إلا أن استخدامه لها لم ينتشر إلا فى الحضارات التالية بسبب البرودة .

ومما سبق نجد أن العصر الحجرى الحديث قد تميز بمظاهر رئيسية أربعة هى :

أولا — الاستقرار ونشأة القرى .

ثانيا — استئناس الحيوان والرعى .

ثالثا — الزراعة .

رابعا — صناعة الآنية الفخارية .

وقد وجدت هذه المظاهر الرئيسة الاربعة منتشرة فى كل جهات العالم التى وجدت فيها بقايا لهذا العصر . وبعد أن أصبحت هذه المظاهر مألوفة للانسان بدأ ينتقل إلى عدد من المظاهر الأخرى أهمها التخصص المهنى ثم التجارة ، وكان هذا سببا فى ثراء بعض المجتمعات عن الأخرى ، وتفكير بعض المجتمعات فى الاعتداء على غيرها طمعا فيما تملكه ، وظهرت بذلك الحروب ثم نشأ الاستعمار بالتالى .

ويعتبر العصر الحجرى الحديث آخر مرحلة من مراحل الحضارة الحجرية

البصرفة بمعنى أن المعادن لم تستخدم خلالها . ولقد كان لاختراع الزراعة أثره الكبير فى تطور الصناعات الحجرية ، إذ كان لا بد من صناعة ما يلزمها من أدوات لحرث الأرض وإعدادها للزراعة وحصد الغلات وطحن الحبوب . وكان نشاط الانسان فى صناعة هذه الآلات عاملا هاما فى ظهور عملية استخراج الحجارة وقطعها من أقرب مواردها ، وكان هذا تخصصا من نوع جديد صاحبه وجود نوع من التجارة الرائجة ذلك لأن الاحجار المناسبة لم تكن موجودة فى كل مكان ، ولما كان نقلها صعبا ، فقد ظهرت صناعة الآلات فى أماكن وجود الأحجار ثم نقلها مصنوعة إلى أماكن الاستهلاك ، وقد فتح هذا مجالا هاما للتجارة فى الأدوات الحجرية سواء أكانت للاستعمال الزراعى أو للاستعمالات الأخرى ، ومن أهم هذه الآلات السكاكين والمثاقب والمكاشط ورءوس السهام .

ولقد قدر لنا هكسلى عدد سكان العالم خلال العصر الحجرى الحديث بما يتراوح بين ١٠ ، ٢٠ مليون نسمة، وذلك فى الفترة بين سنتى ٨٠٠٠، ٥٥٠٠ قبل الميلاد .(١)

وإذا ما انتقلنا إلى عصر المعادن وجدناه يبدأ بعصر النحاس *Copper Age* ولم يستعمل الانسان النحاس فى بداية الامر إلا فى أشياء محدودة كصناعة الدبابيس والسلك والأوانى الصغيرة والسنانير ، ثم صنع منه بالتدريج الفؤوس والتماثيل وغيرها . وقد بدا استعمال النحاس فى مصر حوالى سنة ٤٠٠٠ قبل الميلاد ، اما فى أوربا فتاريخ استعماله غير معروف بالضبط وان كان يقدر بحوالى سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد .

ولقد جاء عصر البرونز بعد عصر النحاس ، ولما كان البرونز عبارة عن

---

١ — المرجع السابق ونفس الصفحات .

نحاس مخلوط بقصدير ، فمن الجائز أن طريقة اكتشاف هذا الخلط قد جاءت مصادفة . ولقد حدث الانتقال من النحاس إلى البرونز فى مصر متأخرا ، ومن الجائز أنه عرف فى أوربا قبل مصر . وكان لاكتشاف البرونز تأثير واضح فى صناعة الآلات فالانسان كان فى حاجة لآلات صلبة حادة وخاصة للأسلحة، ولذلك أوجد تقدم صناعة البرونز ثورة خطيرة فى الصناعة وانتشارها .

أما عن عصر الحديد *Iron Age* فقد بدأ حوالى سنة ١٣٠٠ قبل الميلاد فى الشرق الادنى وفى اوربا حوالى سنة ١٠٠٠ ق .م،وقد تميز الحديد بصناعة أدوات وأسلحة منه تفوق كثيرا تلك التى كانت تصنع من البرونز كما كان رخصه سببا فى وفرة الأدوات التى سهلت عملية الزراعة ومكنت من زراعة أراض جديدة بعد أن سهلت عملية قطع الغابات وعمليتاالرى والصرف . وكان لاستعمال المعادن عامة فى صنع الادوات والآلات اثر سيء على صناعة الاحجار فتدهورت هذهالصناعة بظهور المعادن، كما تدهورت صناعةالفخارمن قبل بصناعة الاوانى الحجرية .

وهكذا تأثرت المظاهرالحضارية نتيجةلاكتشاف المعادن والاهتداءإلى صهرها وما صاحب هذا من حركة انتعاش فى الزراعة والتجارة نتيجة للرغبة فى إنتاج فائض يكفى المشتغلين فى غير المجالات الزراعية كالتعدين وصهر المعادن وصناعتها ، كما أمكن بالتدريج صناعة أدوات واسلحة اكثر اتقانا واطول بقاء .

ولقد تأثرت المظاهر الحضارية أيضا باختراع العجلة فى آسيا حوالى سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد وما صاحب اختراعها من ثورة فى النقل البرى بعد أن سهل هذا الاختراع استغلال الحيوانات كالثيران والحمير والخيول فى الجر ، كماأحدث اختراع المراكب فى مصر حوالى سنة ٣٥٠٠ ق ٠ م أيضا وفى شرق البحر

الابيض سنة ٣٠٠٠ ق . م ، أحدث هذا الاختراع ثورة أخرى فى النقل البحرى ، وما كان لذلك كله من أثر فى اتساع حركة تبادل الخامات والمواد المصنوعة وزيادة انتقال الانسان من مكان لآخر ، وما صاحب ذلك أيضا من زيادة عدد القرى واتساع حجمها ثم نشأة المدن وظهور المجتمعات الحضرية نتيجة لوفرة الفائض من الانتاج الزراعى وزيادة المعرفة بفنون البناء والهندسة .

ويهمنا من الناحية الاجتماعية أيضا أن تقرر بأن هذا العصر قد امتاز باختراع الكتابة التى بدأت فى مصر سنة ٣٢٠٠ قبل الميلاد ، وظهور كثير من الادوات والحرف والطبقات الاجتماعية ثم ظهور الدولة بحكومتها المركزية ، والتى تميزت فى أول أمرها فى كثير من المجتمعات بالاعمال العامة الكبيرة . ومن أبرز أمثلة الدولة فى التاريخ القديم تلك التى ظهرت فى مصر ابتداء من عصر الاسرات الذى بدأ بالاسرة الأولى بقيادة الملك مينا .

وهكذا اخذت الحضارات الانسانية تتعقد وتتشابك وتنتشر ، وأخذت تدخل بذلك مراحل جديدة تختلف فيها من مجتمع لآخر ومن زمان لزمان آخر ، وتميزت المجتمعات بعضها عن بعض بمدى ما استحدثته من المظاهر الحضارية او بمدى ثبات تلك المظاهر فيها ، وأصبح من السهل أن نميز المجتمعات على هذا الاساس فأطلق على بعضها مجتمعات بدائية وعلى البعض الاخر مجتمعات حديثة ، وقد تميز العصر الحديث بظهور هذا العدد من العلوم التى أخذت على عاتقها دراسة هذه المجتمعات من نواحيها المختلفة ، وكانت هذه الدراسات سببا فى تشعب هذه العلوم نتيجة لتشعب مجالات اهتمامها ، ومن هذه العلوم علم الاجتماع ، وعلم الانثروبولوجيا الاجتماعية .

# الفصل الرابع

# طبيعة الحضارة الانسانية

- ماهية الحضارة
- الحضارة تجريد معنوى للسلوك
- الحضارة المثالية والحضارة الواقعية
- مظاهر الحضارة
- تكامل الحضارة
- الاختراع والانتشار الحضارى

**ماهية الحضارة :**

يتميز الانسان عن الحيوان باختلاف تصرفاته من مجتمع لآخر وخاصة فيما يتعلق بالطرق التى يؤدى بها نشاطه اليومى ، ففى الوقت الذى نجد فيه الحيوانات بما فيها القردة العليا تمارس نماذج معينة فى تصرفاتها ، نجد الانسان رغم اتفاق أجناسه المختلفة فى التركيب الجسمى وفى الوظائف التى تؤديها أعضاؤه ، نجده يمارس تصرفات تختلف من مجتمع لآخر ، ومن وقت لآخر ، دون أى ارتباط لنماذج التصرف هذه بالجنس الذى ينتمى إليه . ويمكن أن نلمس هذا الاختلاف واضحا فى أغلب أنواع النشاط الذى يمارسه الانسان ، فاذا مثلنا بنماذج التصرف التى تتعلق بالغذاء فى عدد من المجتمعات وجدنا مثلا أن قبائل الاسكيمو التى تعيش فى المناطق القطبية تقتصر فى غذائها على اللحوم والأسماك تقريبا ، فى الوقت الذى نجد فيه الهنود الذين يعيشون فى المكسيك يعتمدون أساسا فى غذائهم على الحبوب والخضروات ، كما أننا فى الوقت الذى نجد فيه اللبن ومشتقاته غذاء كاليا جدا بالنسبة لقبائل الباجندا فى شرق افريقيا ، يعتبره سكان غرب افريقيا شيئا لا يؤكل بل وساما فى بعض الاحيان . وبالمثل تختلف نظرة بعض المجتمعات إلى السمك ، ففى الوقت الذى يعتبر السمك غذاء هاما عند كثير من القبائل الهندية التى تعيش فى أمريكا نجده عند قبائل أخرى شيئا لا يصلح للغذاء بل وينسب إليه حدوث بعض الامراض كما هو الحال عند قبائل النفاهو *Nafahos* والأباش *Apaches* فى نيومكسيكو وقبائل أريزونا ، كما يمكن أن نمثل لهذا الاختلاف أيضا بموقف أفراد المجتمع الواحد من بعض أنواع الغذاء ، ففى الوقت الذى نجد فيه سكان السواحل فى مصر يقبلون على أكل كثير من أنواع الحيوانات البحرية كالمحار وغيره نجد سكان المناطق الداخلية يشمئزون من منظر مثل هذه الحيوانات ولا يمكن إقناعهم بأكلها . وأخيرا نجد كثيرا من المجتمعات تعتمد

على لحم الكلاب كغذاء رئيسى مثل قبائل هنود المكسيك التى تربى الكلاب لأكلها بينما نجد مجتمعات أخرى تستنكر مجرد التفكير فى لحم الكلاب كغذاء .

ويمكن أن نمثل لاختلاف نماذج التصرف فى المجتمعات الانسانية بما هو متبع نحو الملابس وأدوات وطرق الزينة ، وذلك حينما نجد عددا من المجتمعات مثل سكان استراليا الاصليين يعيشون شبه عرايا بينما نجد قبائل الباجندا فى شرق افريقيا يلبسون ملابس كاملة من الرقبة إلى القدم . كما تختلف شعوب العالم عامة فى الوسائل والطرق التى يغطون بها أجسامهم ، كما يبدو هذا الاختلاف واضحا فيما يتعلق بوسائل الزينة التى نجدها كثيرة الاختلاف بين مجتمع وآخر ، فهى قد تشمل حلقة الانف والشفة وحلق الأذن ودبابيس الشعر ، كما نجد مجتمعات أخرى تزين الجسم نفسه بواسطة الطلاء أو الطين أو الوشم أو بآثار الجروح المتعمدة فى بعض الأحيان .

وإذا اكتفينا الآن بهذه الأمثلة لتوضيح مدى اختلاف المجتمعات الانسانية بعضها عن بعض فى تصرفاتها فان الخطوة التالية هى أن نسأل عن الأسباب التى أدت إلى كل هذه الأختلافات على الرغم من أن الانسان فى كل هذه المجتمعات ينتسب أصلا إلى نوع واحد هو فصيلة الانسان العاقل .

واجابتنا على هذا السؤال يمكن ان نجدها فيما نلاحظه من أن الانسان يختلف عن الحيوانات الاخرى فى أن يتعلم الجزء الاكبر من تصرفاته ، فهو حينما يولد يكون ضعيفا ، ولا تولد معه بالوراثه أية طرق للتصرف ، وهو لكى يعيش يجب أن يتعلم كيف يأكل وكيف يمشى ويتكلم بل ويتعلم كل التصرفات الأخرى التى تمكن من أن يعيش ، ويظل الانسان على هذا الحال طوال فترة الطفولة والصبا فى دورة لا تنتهى من تعلم أشياء جديدة تهيئه لكى يعيش وينسجم فى المجتمع الذى ولد فيه وتعلم فيه . وإذن فالانسان يعيش فى مجتمعات يشترك أعضاء كل منها فى طرق مميزة للسلوك والتصرف ، ويتكون من كل هذا فى النهاية ما اصطلح على تسميته بالحضارة .

ويوضح كلوكهون هذا المعنى بقوله :

*" A culture is learned by individuals as the result of belonging to some particular group , and it constitutes that part of learned behaviour which is shared with others . It is our social legacy, as contrasted with our organic hevedity . It is one of the important factors which permits us to live together in an organized society , giving us ready - made solutions to our problems , helping us to predict the behaviour of others , and permitting others to Know what to expect of us. "*(١)

ولكل مجتمع انسانى حضارته الخاصة والتى إذا تناولناها كوحدة بكل تفاصيلها وجدناها تختلف بالمثل عن حضارة أى مجتمع آخر . وسيكون تمثيلنا لاختلاف الحضارات بعدد من المجتمعات التى تسكن أمريكا الشمالية لأنها تشمل فى داخلها أفضل النماذج لهذا التمثيل من ناحية أن المجتمع الأمريكى ككل يعتبر فريدا فى نوعه بين مجتمعات العالم من ناحية هذا الخليط الذى يضمه من السكان ، ويكفى أن نعلم أن الولايات المتحدة مثلا تكاد تكون الدولة الوحيدة فى العالم التى يجمع مواطنوها بين الأجناس الرئيسية الثلاثة ، البيض والسود والصفر بكل فئاتها واختلافاتها الحضارية .

ويمكن أن نبدأ أمثلتنا بالحضارة السائدة فى مجتمع النفاهو ، وهو مجتمع يضم حوالى ستين ألف نسمة يعيشون حاليا فى أحد المعازل فى نيومكسيكو وأريزونا بالولايات المتحدة . وتشتمل حضارة النفاهو على عدد كبير من نماذج التصرف التى تختلف فى نواح كثيرة عن تلك التى نجدها عند الهنود الآخرين الذين يعيشون بالقرب منهم ، كما تختلف كذلك عن بعض المجتمعات الاخرى التى تعيش فى نفس الولاية والذين يتكلمون اللغة الاسبانية ، وعن الأنجلو أمريكيين الذين يعيشون فى ولايتى نيومكسيكو وأريزونا . ومن النواحى التى

---

(١) *Kluckholn , op. cit. , p. 26 .*

يختلف فيها النفاهو عن جيرانهم لغتهم التى لاتنتمى إطلاقا إلى أى من الانجليزية أو الاسبانية ، كما يختلفون أيضاً فى ملبسهم وزينتهم وفى طريقة بناء مساكنهم التى يصنعونها من كتل الخشب والتى تغطى بعد ذلك بالطين ، كما نجد لهم نظاما خاصا بالنسب يتمثل فى انتسابهم إلى الأم، هذه علاوة على تلك المجموعة المعقدة من الطقوس الخاصة بشفاء الأمراض واعتقادهم بالتالى فى السحر ، وثقتهم فيمن يمارسونه وفى قدرتهم على إنزال الآلام بغيرهم بل وقتلهم فى بعض الأحيان ، كما نجدهم فى النهاية يؤمنون فى انتسابهم إلى آلهة وقوى غير منظورة يجب عليهم إرضاؤها لكى يعيشوا فى صحة ورخاء .

هذا عن مجتمع النفاهو الذى يعيش فى منطقة معينة من الولايات المتحدة ، له حضارة معينة هى حضارة النفاهو التى تتمثل فى طرق التصرف التى تميز كل أو معظم أفراد المجتمع والتى تختلف فى الوقت نفسه عن تلك التى تميز المجتمعات الأخرى المجاورة له .

وعلى الرغم من أن لكل جماعة إنسانية حضارتها الخاصة فاننا نلاحظ أن هناك دائما حضارة مشتركة بين أغلب هذه الجماعات أو بين عدد كبير منها على الأقل ، فنى منطقة السهول فى أمريكا الشمالية تعيش جماعات هندية مختلفة لكل منها حضارتها المميزة ولكل منها اسمها القبلى مثل قبائل كرو *Crow* وقبائل شين *Cheyenne* وقبائل أوماها *Omaha* ، ولكل من هذه القبائل لغتها التى تتخاطب بها ، كما كان كل منها مستقلا سياسيا عن الآخر ، ولكن مع ذلك نجد أن لكل هذه القبائل عددا من الصفات الحضارية المشتركة بينها جميعا ، منها أن الجاموس كان يصاد للغذاء وأن المساكن عامة كانت تبنى على أعمدة وتغطى بالجلود ، وأن الكلب ثم الحصان فيما بعد كان يستعمل للحمل والجر ، وأن الملابس كانت تصنع من جلد الجاموس والغزال ،

كما كانت الرسوم الهندسية شائعة بينها للتعبير عن نواح معينة . أما عن رجال هذه القبائل فكانوا ينقسمون إلى طوائف من المدافعين يسكنون فى معسكرات على شكل دائرى ويمارسون فى عبادتهم طقوسا تكاد تكون موحدة فيما بينهم . ونظرا لاشتراك أفراد هذه الجماعات المختلفة فى كثير من صفاتهم الحضارية أمكن تعيين هذه الحضارة الموحدة او الشائعة التى تظلهم جميعا وتسميتها « حضارة السهول » تمييزا لها عن حضارات هندية اخرى تكون لها السيادة فى مناطق اخرى مثل حضارة سكان الغابات الشرقية او الشمالية او منطقة كاليفورنيا .

وإذن فما نعنيه بحضارة السهول او حضارة ساحل المحيط الهادى الشمالى او حضارة الغابات الشرقية هو طرق السلوك الشائعة بين عدد من المجتمعات التى تتميز باشتراكها فى عدد من مظاهر الحضارة نتيجة لدرجة معينة من الاتصال والتفاعل .

وقد يتميز المجتمع الواحد بعدد من الحضارات إذا ما انقسم إلى مناطق او اجزاء حضارية يتميز بها جزء دون غيره من الاجزاء الأخرى . ويكون هذا التقسيم واضحا فى المجتمعات التى يسودها نظام الطبقات وحيث نجد لكل طبقة طرقها الخاصة فى السلوك . وهذه الظاهرة لا نجدها فى المجتمعات الأمريكية فحسب، بل وفى الاوروبية والآسيوية والافريقية ايضا ، فى الماضى وفى الحاضر، ومن ذلك ما نلمسه من اختلاف بين المجتمعات الريفية والمجتمعات الحضرية فى كثير من نماذج التصرف ، ويمكن ان نمثل لذلك بمصر وما نجده من اختلاف بين ريفها وحضرها او ما نجده من اختلاف بين السكان الذين يقطنون شمالها والذين يقطنون جنوبها ، او ما نجده من اختلاف بين سكان المناطق الساحلية

والمناطق الداخلية رغم انتساب هؤلاء السكان جميعا فى النهاية إلى مجتمع واحد هو المجتمع المصرى .

ومن كل ما سبق يمكننا القول ان الحضارة اصطلاح يستخدمه الأنثروبولوجيون بمعانى مختلفة يمكن ان نجملها فيما يلى :

١ — طرق الحياة او نماذج المعيشة الشائعة فى وقت من الأوقات لكل المجتمعات الانسانية ، ويمكن ان نمثل لطرق التصرف هذ بالزواج وارتداء الملابس وغير ذلك من نماذج التصرف التى تكاد تكون عالمية .

٢ — طرق الحياة او نماذج المعيشة التى تتميز بها مجموعة من المجتمعات التى يوجد بينها نوع من التفاعل يختلف فى درجة عمقه ، ويمكن ان نمثل لذلك بأشكال التصرفات التى تكاد أن تكون قاصرة على المجتمعات الاسلامية نتيجة لعقيدتها الدينية الموحدة .

٣ — طرق الحياة أو نماذج المعيشة التى يتميز بها مجتمع بذاته مثل ارتداء الحطة على الرأس فى المجتمع الاردنى أو الاحتفال بأعياد معينة فى مجتمعات بذاتها .

٤ — طرق الحياة أو نماذج المعيشة التى تتميز بها طبقات معينة أو أجزاء بذاتها فى مجتمع واحد يظله تنظيم واحد مثل ما نجده من اختلاف فى الزى بين بين سكان الريف وسكان الحضر أو اختلاف فى اللهجات .

ولا تقتصر الحضارة من وجهة النظر الأنثروبولوجية على مجتمع معين وإنما هى موجودة فى كل المجتمعات ، بدائية وغير بدائية ، وعلى ذلك فعلم الأنثروبولوجيا لا يعترف بالاصطلاح الشائع بين الناس حينما يقولون ( متحضر وغير متحضر ) لأن هاتين الكلمتين إنما تعنيان فرقا فى الحضارة وليس استبعادا لها ، فالحضارة توجد فى لندن وباريس والقاهرة ، كما توجد عند قبائل الباجندا والازاندى والنفاهو .

أما عن اصطلاح المدنية *Civilization* فهو مما يدخل ضمن نطاق الحضارة *Culture* ، ومن جهة النظر الأنثروبولوجية لا تختلف المدنية فى النوع عن الحضارة وإنما هى عبارة عن فترات أو أجزاء معينه من الحضارة تتميز بالكم وبدرجة التعقيد ، وعلى هذا الأساس أيضاً لا يعترف علم الانثروبولوجيا بالاصطلاح الشائع بين الناس حينما يقولون « متمدين وغير متمدين » .

## الحضارة تجريد معنوى للسلوك

يرى بعض علماء الانثروبولوجى أن الحضارة شىء لا يمكن ملاحظته بطريقة مباشرة وإنما تكون هذه الملاحظة خلال ما يفعله أو يقوله الناس وخلال العمليات والوسائل التى يتبعونها فى صناعة واستخدام الأشياء المادية. وعلى أساس هذا الرأى يرى هؤلاء العلماء عدم الخلط بين الحضارة وبين أشكال السلوك أو بين الحضارة وبين النواحى المادية كالأدوات والأوانى والاعمال الفنية وغيرها من الاشياء التى يستخدمها أو يصنعها الناس.

ويقول ردفيلد *Redfield* فى توضيحه لهذه النقطة إن الحضارة تبدو فى طريقة العمل والصناعة ولكنها لا تتكون من العمل والصناعة.

*« Culture is manifest in act and artifact, it does not consist of acts and artifacts ».*(١)

وعلى أساس هذا الرأى فان الاسلحة والأدوات الفخارية والسلال والرسوم والنقوش وغيرها من المظاهر المادية إذا جمعت ودرست، فانما يكون ذلك لانها توضح الانتاج النهائى لطرق التصرف الشائعة فى مجتمع معين. وبالمثل تدرس بعض أشكال الافعال لا على أنها أشكال منعزلة للتصرف، ولكن لما يمكن أن توضحه هذه الأفعال من نماذج التصرف والقيم فى المجتمع موضوع الدراسة.

ويوضح لنا موريس أوبلر *Morris Opler* هذه الناحية فى دراسته لقبائل الأباش *Apache* فيروى على لسان أحد الشبان وكان يريد الزواج :

---

(١) *R. Beals & H. Hoijter, An Introduction to Anthropoloyg (N.Y. 1954) p. 210.*

« بعد أن ذهبت لمقابلة جدة الفتاة قدمت لى شرابا ، وبعد أن تحدثت إليها أخبرتنى أن حفيدتها — وكنت لم أرها من قبل — تساوى حصانين . وعندما عدت إلى منزلى ناقشت الموضوع مع أقاربى فأعطانى أحد أعمامى بغلا واحد أبناء عمى حصانا . وفى اليوم التالى ذهبت إلى منزل سيدة أعرفها متوسطة السن ، وكانت تأكل عندما وصلت إليها، وطلبتها لأحدثها فى الخارج واتفقت معها على أن تتصل بجدة الفتاة ، ثم ذهبت السيدة فى اليوم التالى لمقابلة جدة الفتاة وطلبت منها اعطائى حفيدتها كما ناقشتا موضوع الحصانين ، ثم ابلغتنى السيدة بعد ذلك ما حدث بينهما فأعطيتها الحصان والبغل لتوصيلهما إلى الجدة . وفى اليوم التالى ذهبت لاستلام العروس . » (١)

ويرى أوبلر أنه من أمثال هذه القصة يمكن للباحث الانثروبولوجى أن يجرد بعض الاتجاهات الشائعة التى تتعلق بالزواج فى مثل هذا المجتمع ، ومنها على سبيل المثال أن الاجراءات الاولى للزواج تتم عن طريق أهل الفتاة وأهل الفتى، فاذا ما أراد الفتى أن يتزوج وجب عليه استشارة أقاربه بقصد الحصول على موافقتهم ومساعدته فى ثمن العروس كهدية من أسرة الفتى إلى أسرة الفتاة، كما أنه من اللازم إيجاد وسيط لعمل ترتيبات الزواج ويكون هذا الوسيط فى العادة قريبا أكبر للعريس ، وبعد أن تتم الوساطة يبلغ العريس بالنتيجة ، ثم يعطى الوسيط الثمن لتوصيله إلى أهل العروس ، ثم يذهب هو فى اليوم التالى يطالب بها .

وبالمثل يمكننا بملاحظة تصرفات أفراد المجتمع نحو ناحية معينة أن نخرج بقيم أو مثل بذاتها تختفى وراء هذه التصرفات ، ومن ذلك مثلا تحديد وضع المرأة أو كبار السن فى المجتمع بملاحظة تصرفات أفراد المجتمع نحو المرأة أو نحو

---

(١) *Morris E. Opler, An Apache Life-way (Chicago, 1941) p. 157*

كبار السن ، وفيما يتعلق بوضع المرأة نجد أن معاملة الرجل لها تختلف من مجتمع لآخر ، ويبدو هذا الاختلاف فى عدد من التصرفات الملموسة التى تختفى وراءها قيم معنوية غير ملموسة ، ويمكن على هذا الأساس أن نجرد من هذه التصرفات المادية الملموسة نواحى معنوية معينة تتمثل فى احترام الرجل للمرأة أو احتقاره لها ، كما يمكن بالمثل أن نحدد فى مجتمع معين اتجاهاته المختلفة نحو كبار السن أو نحو الأطفال أو نحو التعليم أو أية ناحية أخرى تسود هذا المجتمع .

ويزكى كلايد كلوكهون هذا المعنى بقوله :

« إن الحضارة طريقة للتفكير والشعور والعقيدة ، وأنها عبارة عن مجموعة المعارف التى حصلت عليها الجماعة واختزنتها فى ذاكرة أفرادها وكتبهم وأشيائهم لكى تستخدم فى المستقبل ، وأنه لكى نلم بها ندرس إنتاج هذا النشاط العقلى الذى يتضمن السلوك العلنى والأحاديث والرموز والنتائج الملموسة التى تصدر عن كل هذا والتى تتمثل فى أشياء كالأدوات والمنازل والحقول وغيرها » . كما يقول كلوكهون « لقد كان شائعا أن تحتوى قوائم الصفات الحضارية على أشياء كالساعات وكتب القانون فى الوقت الذى لاتخرج فيه هذه الأشياء عن كونها مجرد معادن وورقا وحبرا ، وتقتصر أهميتها لدينا فى معرفة إن كان بعض الناس يعرفون كيفية صناعتها . وقيمتها لدى البعض الآخر ومدى ما يمكن أن تدخله من سعادة على البعض الآخر نظراً لأهميتها فى توجيه نشاطهم ، أو أن البعض على العكس من ذلك لايرى لها أية أهمية » . ولا بأس من أن نعرض هنا نفس النص الذى كتبه كلوكهون :

*« Culture is a way of thinking , feeling, believing . It is the group's knowledge stored up in the memories of men, in books and objects for future use . we study the products of their mental activity : the overt behaviour, the speech and gestures*

*and activities of people, and the tangible results of these things such as tools, houses, cornfields, and what not. It has been customary in lists of culture traits to include such things as watches and lawbooks . this is a convenient way of thinking about them, but in the solution of any important problem we must remember that they in themselves, are nothing but metals, paper and ink · what is important is that some men know how to make them, others set values on them, are unhappy without them, direct their activities in relation to them, or disregard them* » (١) ·

ويتضح نفس الاتجاه عند كلوكهون عند ما تجده يشبه الحضاره بالخريطة ويقارن بينهما كالتالى :

« *Culture is liks a map · Just as a map isn't the territory but an abstract representation of a particular area, so also a culture is an abstract description of trends toward uuiformity in the words, deeds, and artifacts of a human group. If a map is accurate and you can read it, you won't get lost, If you know a culture, you will know your way round in the life of society* (٢)

ويوضح رالف لينتون *Ralph linton*(٣) نفس المعنى حينما يقول :

« *Early in the development of anthropological studies The Term material culture was coined to refer to such artifacts.*

---

(١) *Kluckhohn , op. cit., P. 23 .*

(٢) *Kluckhohn, op. cit., PP. 28—29.*

(٣) أحد العلماء الامريكان ، ولد فى سنة ١٨٩٣ وتوفى فى سنة ١٩٥٣ وقد بدأ انتاجه الأنثروبولوجى بدراسة الحضارة فى بولينزيا ومدغشقر ، وكان يركز فى دراسته على تاريخ الحضارة والفنون البدائية وله عدد من المؤلفات منها فى سنة ١٩٣٦ *The study of Man* وفى سنة ١٩٤٠ *The Cultural Background of Personality* وفى سنة ١٩٤٧ *The Natural History of the Family* ، أما آخر إنتاج له فكان كتاب *The Tree of Culture* ; وقد نشر فى سنة ١٩٥٥ أى بعد وفاته ·

*Howerer The present tendency among anthropologists is to exclude the objects themselves from the culture concept but to include what might be termed the patterns for objects. Thus, a stone axe itself is not regarded as a culture element, but the shape, the size, The finish, materials, and so forth characteristcs of the axes made and used by a particular society are considered culture elements* ».(١)

وإذا انتقلنا إلى رأى عالم آخر هو رادكليف براون (٢) وجدناه يعبر عن مفهومه للحضارة على الوجه التالى :

« *The word culture as I am going to use , is a term which obviously refers to a certain standardization of behaviour , inner and outer , in a certain group of human beings , in a certain society* ». (٢)

ويهمنا فى موضوعنا الذى نناقشه الآن مايضيفه بعد ذلك بقوله :

« *As such, culture is a very wide term, and is if you will*

---

*Ralph Linton, The Tree of Culture (N.Y. 1959) pp.36-37.* (١)

(٢) عالم انجليزى ولد فى سنة ١٨٨١ وتوفى سنة ١٩٠٠ ، وبدأ أنتاجه الأنثروبولوجى فى سنة ١٩٠٦ بدراسة حقلية فى جزر الأندامان ثم فى استراليا فى سنة ١٩١٠ ، وقد حاضر فى جامعة شيكاغو كأستاذ زائر من سنة ١٩٣١ إلى سنة ١٩٣٧ حين عين استاذاً لكرسى الأنثروبولوجيا الاجتماعية بجامعة اكسفورد ، وفى سنة ١٩٤٧ جاء إلى مصر استاذا زائرا بجامعة الاسكندرية حيث كان له جهد كبير فى انشاء معهد العلوم الاجتماعية بنفس الجامعة فى سنة ١٩٤٨ . وقد نشر رادكليف براون عددا من البحوث منها :

*The Andaman Islanders, 1922*

*The Social Organization of Australian Tribes,*

*Structure and Function in Primitive Society*

أما كتابه *A Natural Science of Society* فقد نشر فى سنة ١٩٥٧ أى بعد وفاته.

*A. R. Radcliffe-Brown, Natural Science of Society* (٢) *( Illinois, 1957 ) p. 92*

*notice, not a term for a concrete phenomenal reality, it is for a description. The concrete phenomenal reality to which it refers is behaviour* ».(١)

ومن هذا النص نرى أن رادكليف براون يستبعد الظواهر الملموسة عن مفهوم الحضارة ، وهو يوضح رأيه هذا حين يقارن بين الكلام كشكل من أشكال التصرف وبين اللغة فيقول إن الانسان إذا تكلم فان هذا التصرف يبدو فى مجموعة من الحركات الصوتية ، تمثل كل حركة منها حدثا ملموسا له حقيقته الظاهرة التى يمكن ملاحظتها ، فاذا ما قمنا بمقارنة هذه الحركات بين مجموعة من الأفراد فى مجتمع يتكلم أفراده لغة واحدة وجدتهم يتبعون أساسا معينا متفقا عليه لهذه الحركات كشكل من أشكال التصرف ، وهذا الأساس الموحد المتفق عليه هو ما نطلق عليه اصطلاح « لغة » وعلى ذلك فاللغة لا تعتبر حقيقة لها وجودها الملموس وانما هى وصف لمجموعة من الحركات الصوتية أو الأفعال المتعلقة بالكلام التى يمارسها الأفراد فى مجتمع معين والتى تتميز بأسس موحدة متفق عليها ، يمكن ملاحظتها خلال هذه الأفعال . ويضيف رادكليف براون بعد ذلك قوله ، « وبالمثل فالحضارة أيضا عبارة عن وصف للتصرفات الموحدة المتفق عليها للتفكير والشعور والفعل(٢) » .

وإذن فحسب الرأى السابق نجد أن الحضارة عبارة عن القواعد التى تختفى وراء التصرفات الملموسة ، ويمكن تعيين هذه القواعد عن طريق وصف هذه التصرفات الملموسة ، أما القواعد نفسها فمكانها فى اذهان الأفراد . هذه ويرى رادكليف براون أن الالمام بالناحيتين ضرورى لأنهما مرتبطان ببعضهما تماما ، فالحضارة

---

(١) *Ibid. 96*

(١) *Radclife-Brown, op. cit., pp. 103 — 104 .*

تبدو فى التصرفات ، وهذه التصرفات تتوقف على ما فى ذهن الأفراد من قواعد ، ويشرح رادكليف براون وجهة نظره هذه بالمثال التالى :

*« If you watch an Andaman Islander making a bow, and then another following a similar procedure, you can write a definition of a certain body of technical usages. But behind that technical usage there is in the minds of the Andaman Islanders the recognition that that is the way to make a bow, that this procedure is the proper one. the usages are parts of concrete reality »*.

وهكذا يرى هؤلاء العلماء من أمثال ردفيلد واوبلر وكلوكهون ولينتون ورادكليف براون أن الحضارة شىء معنوى غير ملموس وانما يمكن تجريدها من التصرفات والأشياء الملموسة كما هو واضح من النصوص التى تتفق فى هذه الناحية .

## الحضارة المثالية والحضارة الواقعية

إن طرق التصرف التى تتكون منها الحضارة ما هى إلا تعميم لما يفعله كل، أو بعض أفراد المجتمع . وإذن فهذه الطرق لا تصف بالضبط ما يتعلق بها من تصرفات فردية ، ففى مجتمعنا مثلا تعودنا أن نستخدم اليد فى السلام. ولكن الطريقة التى تستخدم بها اليد نجدها تختلف من شخص لآخر فأحد الأفراد يضغط على يد الآخر بشدة بينما يضغط آخر بشىء من الاعتدال، بينما نجد ثالثا لا يضغط على يد الآخر إطلاقا، ويكشف كل فرد من هؤلاء الثلاثة عن اختلافات فردية لاتجاه حضارى عام أو تصرف معين .

وهذه الاختلافات الفردية شائعة فى كل المجتمعات ، وبالنسبة لكل التصرفات الحضارية تقريبا ، وقد مثلنا لذلك باختلافنا فى طريقة إستخدام اليد للسلام ، كما يمكننا أن نلمس هذا الاختلاف أيضا بين قائدى السيارات عند مشاهدتهم الضوء الأحمر عند تقاطع الطرق ، وحيث نجدهم يختلفون فى السرعة التى يسيرون بها قبيل وقوفهم وحيث نجد بعضهم يوقف سيارته قبل الخط الأبيض بينما نجد البعض الآخر يتجاوز هذا الخط، وقد يتطرف بعضهم فلا يقف كلية رغم مشاهدته للضوء الأحمر .

ومن المثالين السابقين يمكننا أن نميز بين شكلين من نماذج التصرف الحضارى، يمكن أن نطلق على الشكل الأول مثالى *Ideal* والثانى واقعى أو سلوكى *Behavioural* ويمثل الأول فى رأى كلوكهون ما يفعله أو يقوله أفراد المجتمع فى موقف معين إذا ما تمسكوا تماما بالقيم التى توجه تصرفاتهم ، بينما يمثل الشكل الثانى التصرف الفعلى للأفراد فى مواقف معينة[1]

---

(1) *Kluckhohn , op. cit , p.*

هذا ويمكن أن نلمس هذين النوعين من النماذج فى مثالنا السابق الخاص باشارة المرور وحيث نجد أن التصرف المثالى يختلف فعلا عما يتصرفه بعض السائقين ، ولعله مما يلفت النظر أن الفرق بين التصرف المثالى والتصرف الواقعى لا يكون كبيراً فى العادة ذلك لأنه إذا ما حدث وأصبح الفرق كبيراً بين النماذج المثالية والنماذج الواقعية اتجه المجتمع إلى أحداث تعديل فى إحدهما حتى تضيق الفجوة بينهما . وفى مثالنا السابق نجد أن الفرق ليس كبيراً بين السائق الذى يقف عند الخط الأبيض تماما وبين ذلك الذى يقف بعد الخط بقليل،أما إذا أصبح التصرف السائد هو عدم الوقوف إطلاقا إذا كان الطريق مغلقا وجدنا المجتمع يتجه إلى تعديل مثل هذا الوضع ، إما بالغاء إشارة المرور فى هذا المكان الذى تحدث عنده المخالفات ، وإما أن يشدد رقابة وعقوبة على من يخالف حتى تعود الأمور إلى التصرف المطلوب أو إلى ما يقرب منه .

هذا وتتميز كل حضارة بأنها تشمل من التصرفات ما يمكن تصنيفه من ناحية مدى شيوعها بين أفراد المجتمع إلى أنواع ثلاثة أطلق عليها رالف لينتون الأسماء التالية :

(ا) التصرفات العامة *Universasals*

(ب) التصرفات الخاضعة للاختيار *Alternatives*

(ح) التصرفات الخاصة *Specialties*

والنوع الأول من هذه الاصطلاحات الثلاثة هو ما يطلق على أى شكل من أشكال التصرف يتميز بشيوعه عامة بين أفراد المجتمع كاستخدام ادوات معينة عند تناول الطعام أو ارتداء ملابس بذاتها عند مغادرة البيت ، أما النوع الثانى فيطلق على تلك التصرفات التى يترك للانسان فيها حرية الاختيار من بين نماذج مختلفة دون أن يكون فى ذلك حرج أو خروج على المجتمع كأن يختار الرجل

بين الشارب الكبير أو الصغير أو أن لا يكون له شارب اطلاقا ، أو أن يكون الفرد حرا فى أن يدخن بالطريقة التى يريدها فيختار بين السيجارة والسيجار والبايب . أما الاصطلاح الثالث وهو التصرفات الخاصة فالمقصود منها تلك التى لا يمارسها سوى فئة معينة أو جماعة بذاتها فى داخل المجتمع كما هو شائع بين الأفراد الذين ينتسبون لنظام الكشافة أو المرشدات كالسلام باليد اليسرى أو التحية بالأصابع الثلاثة، كما نلمس مثل هذا التصرف بوضوح فى الملابس الخاصة التى يرتديها رجال الشرطة أو الجيش، وقد تكون مثل هذه التصرفات غامضة على بقية أفراد المجتمع فلا يفهمونها كلية ، وقد يفهم البعض الآخر معناها أو ما ترمز اليه ولكنه لا يمارسها فى العادة الا إذا كان فعلا ممن ينتمون الى هذه الفئة الخاصة .

# مظاهر الحضارة

لا تتكون الحضارة من الطرق التى يتعلمها الناس للتصرف فقط وإنما يدخل فى تكوينها أيضاً كل طرق التصرف التى تجمعت عن طريق عدد كبير من الافراد خلال عدد كبير من الأجيال. وتجمع طرق التصرف التى يتعلمها الانسان لا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق خلق واستخدام الرموز *Symbols* والتى لا يمكن للتعليم بدونها إلا أن يظل شيئا ثابتا غير متطور كما هو حادث فى المجتمع الحيوانى ، أما الانسان فهو المخلوق أو الحيوان الوحيد الذى تمكن من استخدام الرموز فى حياته ، وقد اختلف بذلك عن كل الحيوانات الأخرى التى قد يتعلم بعضها استخدام علامات معينة ولكنها لم تستطع أن تصل أبدا إلى مرحلة الرموز .

والحضارة على هذا الأساس فى بعض مظاهرها عبارة عن تجمع عدد من نماذج التصرف التى يتعلمها الانسان والتى نشأت وتمت عن طريق استخدام الرموز وأصبح لها وجودها بعد أن أصبح الانسان قادرا على الترميز وذلك بأن أعطى معانى معينة عن طريق عدد من الظواهر المادية فى كثير من مظاهر حياته اليومية ، فاللون الأحمر مثلا قد يأخذ معنى الخطر وقد يكون علامة للوقوف عند تقاطع الطرق أو رمزا لحزب سياسى. ومن أمثلة استخدام الرموز الشائعة مقدرة الفرد على التمييز بين جندى الشرطة وجندى الاطفاء وجندى الجيش وجندى البحرية دون أن يدله إنسان آخر على ذلك ، كما يتمثل ذلك أيضا فى مقدرة الفرد العادى على معرفة ما يدور من نشاط داخل المبنى لمجرد النظر إليه وبدون أن يقرأ اللافتة المعلقة عليه ، كأن يستطيع عن طريق طراز البناء أن يحدد إن كان المبنى لمدرسة أو مستشفى أو مصنع أو منزل للسكنى .

وإذن فاستخدام الرموز ضرورى فى تكوين الحضارات لأن هذا الاستخدام يمكن الانسان من نقل ما تعلمه بطريقة أكثر فاعلية، فالحيوانات تتعلم ولكنها تتعلم عن طريق خبرة مباشرة وعن طريق ملاحظة وتقليد غيرها ، أما الانسان فانه يتعلم ولكن ليس فقط عن طريق الخبرة والملاحظة والتقليد ، وإنما أيضا عن طريق استخدام الرموز وخاصة ما تعلق منها باللغات كلاما وكتابة وهما أهم أشكال الرموز انتشارا بين المجتمعات الانسانية فما من مجتمع إلا وله رموزه الخاصة بالكلام والكتابة أو بالكلام على الأقل دون الكتابة. وتبدو أهمية الرموز الكتابية فى أن الانسان إذا ما تعلم شيئا أوحصل على خبرة معينه أمكنه تلخيصها فى كلمات بعد استبعاد مراحل الخطأ التى مر بها إذا كان فى ذلك مصلحة الآخرين ، وما عليه إلا أن ينقلها كلاما أو كتابة . وعل ذلك أمكن لخبرة وملاحظة أحد أفراد المجتمع أن تنتقل إلى الأفراد الآخرين ، كما أصبح للعضو الجديد فى المجتمع أن يحصل اذا أراد على نتائج الخبرات والملاحظات التى حصلت عليها الأجيال السابقة وفى فترة تعتبر قصيرة نسبيا .

ومن كل ما سبق يمكننا أن نميز بين مظاهر ثلاثة للحضارة :

أولا : مجموعة القواعد التى تنشىء نوعا من التوافق بين أفراد المجتمع عن طريق وحدة التصرف ذلك لأن أهم عوامل انسجام الأفراد فى نسق اجتماعى واحد هو وحدة تصرفهم ، والانسان لا يستطيع أن يعيش فى مجتمع إلا إذا أمكنه أن يتوقع اتجاه تصرفات الآخرين .

ثانيا : مجموعة الرموز التى ترتبط بعدد من المعانى ، وتبدو ضرورة هذه الرموز فى ضرورة الاتصال بين الناس، فالانسان لا يستطيع أن يوفق بين تصرفاته وتصرفات الآخرين إلا اذا كانت هناك وسيلة للاتصال تتمثل فى مجموعة الرموز التى يقبلها ويفهمها ويستخدمها الافراد، والكلمات هى أوضح مثال عند استعمالها

كوسيلة لتوصيل معانى معينة . والكلمات ليست المظهر الوحيد للرموز فهناك أيضا الحركات التى تؤدى عن طريق الوجه وأجزائه أو اليدين ، ونحن اذا تكلمنا عن الرموز الاجتماعية فانما نعنى أى مظهر خاص بشىء أو كلمة أو فعل تكون له القدرة على توصيل معنى معين أو يرتبط دائما بمعنى معين ، كما تفعل الكلمات أو بعض الحركات كأن يغمز الانسان بعينه فى موقف معين أو أن يشير بيده بطريقة معينه وهو يقصد معنى بذاته يفهمه الآخرون .

ثالثا : مجموعة طرق عامة للشعور والتفكير ، فأى مجتمع يتميز بمجموعة من العواطف ومجموعة من العقائد التى يشترك فيها غالبية أفراده . والتى تختلف من مجتمع لآخر نظرا لانها تعبر عن جانب من حضارته. ويمكن أن نمثل لهذه العواطف بالعاطفة القوية أو روح الجماعة ، هذا ويمكن أن نلاحظ أن العقائد والعواطف تعتمد على بعضها كثيرا فالعقيدة قد تكون تعبيرا عن عاطفة معينة، والعواطف لا يمكن لها أن تظل حية الا اذا تشكلت فى عقائد أو فى رموز وشعائر ، وهذه الرموز والشعائر لها ضرورتها فى بقاء واتحاد العاطفة فى المجتمع ، ويصبح لدى المجتمع بذلك عواطف وعقائد عامة هى ما أطلق عليها اميل دوركايم المشاهدات الجماعية *Représentations Collectives* والتى يشترك فيها أفراد المجتمع.

# تكامل الحضارة

عرفنا مما سبق أن الحضارة عبارة عن مجموعة ضخمة من التصرفات أو نماذج التصرف التى اختارتها الجماعة خلال مراحل تاريخها . ولا بد والأمر كذلك أن تكون الجماعة قد استبعدت عددا معينا من التصرفات . وهذا الاختيار للنماذج الحضارية لا يكون عشوائيا أو بدون نظام وإنما يكون على أساس عدد من الاعتقادات التى اقتنعت بها الجماعة والتى تتعلق بطبيعة العالم المحيط بالانسان وطبيعة الانسان نفسه، اعتقادات عن طبيعة الأعمال إذا كانت حسنة يسعى إليها الفرد أو سيئة يبتعد عنها . وهذه العقائد المعيارية أو القيم هى التى توجه أفراد الجماعة فى تصرفاتهم نحو أنفسهم ونحو غيرهم،والمجتمع هوالذى يختار من الطرق ما يتفق وتفكيره وميوله ، وما يتفق والقيم التى ارتضاها ، فاذا ما كان هناك اتفاق بين طرق التصرف والقيم السائدة، كان هناك فى الوقت نفسه تماسك أو اتفاق بين القيم نفسها ، وأصبحت الحضارة بذلك متكاملة .

ويمكننا أن نمثل لهذا التكامل *Integration* بحضارتين مختلفتين لنرى مبلغ انسجام نماذج التصرف فى كل حضارة ، وذلك إذا استعرضنا عددا من هذه النماذج فى كل من مجتمعى الايفيوجو ***Ifugao*** والأشانتى ***Ashanti*** ، والمجتمع الأول عبارة عن قبيلة تشتغل بصيد الماشية وزراعة الارز فى إحدى جزز الفلبين ( جزيرة لوزون ) ، أما الأشانتى فمجتمع زنجى فى غرب أفريقيا .

وإذا بدأنا بالمجتمع الأول وجدنا أنه من المعتقدات السائدة فيه أن نظام القرابة يتضمن فرعى الأم والاب ويشمل الاحياء والاموات ومن لم يولدوا بعد ، وهو اتجاه يتجه الى اعتبار الاسرة وحدة،ويركز على أهمية هذه الوحدة

ممثلة فى الاسرة الكبرى ، وقد صاحب هذا الاعتقاد بالضرورة عدد من التصرفات التى تتفق معه ومنها :

١ — تعلو مسئولية الفرد نحو أقاربه على مصالحه الشخصية .

٢ — الاسرة مسئولة عن التصرفات الشخصية لأفرادها .

٣ — تتولى الأسرة حماية أفرادها ضد الاعتداء الخارجى .

٤ — تتولى الاسرة كوحدة تنظيم كل ما يملكه أفرادها من أموال .

٥ — الملكية الفردية للاراضى الزراعية والمنازل محدودة لضمان تنظيمها لصالح الاسرة .

٦ — توجد الاسرة الصغيرة بقصد انجاب النسل وتربيته لأهمية ذلك فى استمرار الاسرة الكبيرة .

٧ — لكل من الرجل والمرأة أهمية اجتماعية واقتصادية متساوية .

ومن المعتقدات السائدة فى مجتمع الايفيوجو أيضا . أن هناك قوى خفية تنظم كل نشاط الجماعة، وأصبحت أعمال الفرد على هذا الأساس، إما أن تتفق أو لا تتفق مع رغبات هذه القوى الخفية ، ويتحدد هذا الاتفاق من عدمه عن طريق التنبؤ . ويمكن إرضاء هذه القوى عن طريق السحر وتقديم القرابين ، كما أن التوفيق فى الصيد يعطى الفرد وأسرته قوة وأهمية اجتماعية. وعلى أساس هذين الاعتقادين وجدنا عددا من التصرفات التى تتجه الى ارضاء هذه القوى الخفية .

ومن القيم السائدة فى نفس المجتمع أن الارز هو أفضل غذاء ، وقد نتج عن ذلك أن أصبحت أراضى زراعة الارز هى أهم وسيلة للحصول على الغنى ،

كما نتج عن ذلك أيضا الأهمية الكبرى التى وضعتها الجماعة لتنظيم مياه الرى لكى تكون ملكية الاراضى مثمرة .

أما عن مجتمع الاشانتى فمن الاعتقادات السائدة فيه أن الآلهة وأرواح الاجداد توجه كل العمليات الخاصة بالعالم المادى . وقد نتج عن ذلك :

١ — خضوع الانسان لمشيئة الآلهة والكائنات الروحية وخاصة أرواح الاجداد .

٢ — يتوقف رخاء المجتمع على مدى توفيقه فى خلق علاقة طيبة مع أرواح الاجداد .

٣ — يعاقب الاجداد بقسوة كل من يخرج على رغباتهم ، ويعتبر هذا الخروج خطيئة.

٤ — اذا لم يعاقب المخطىء تعرضت الجماعة كلها لعقاب الاجداد .

٥ — تعتبر كل الاخطاء جرائم .

٦ — يعتبر الفرد مسئولا خلقيا وقانونيا وفرديا عن أعماله.

ويبدو واضحا من هذه التصرفات مدى أهمية القوى الروحية فى توجيه نشاط الجماعة وفى حياتها ككل .

ومن المعتقدات السائدة فى نفس المجتمع أن الدم شيء طبيعى يورث عن طريق الام، ويخلق بذلك رابطة طبيعية للجماعة ويكون نسبها عن هذا الطريق، كما أصبح ولاء الفرد بذلك موجها نحو أقاربه من الام ، كما يتحدد تبعا لذلك مركزه الاجتماعى فى نظام الرئاسة وعلاقات الملكية والاقامة عن طريق أفراد أسرته من ناحية الأم .

ومما يسود نفس المجتمع أيضا وجوب معرفة الانسان لسبب موته

الا اذا مات بطريقة طبيعية أو فى معركة ، وعلى هـذا الأساس أصبح القتل مكروها عن طريق القبيلة وانما وفق اجراءات تتم عن طريق الملك(١) .

ومن المثـالين السابقين يمكن أن نلمس أن الحضارة أو طرق ونماذج التصرف تتـكون من كل متـكامل فى نسق عام ، ولـكل جزء منها صلة خاصة بالـكل نفسه ، كما أن لـكل منها شكله المعين الخاص به ، فلا نجد أيا من هذه الاشكال يعيش فى فراغ أو يوجد كوحدةمستقلة بنفسها ، وانما يساهم كل منها بدور معين فى الحيـاة ككل ؛ وفى الطريقة التى يتصل بها كل جزء منها بالآخرأويؤثر فيهأويتأثر به،وعن طريق كل هذه الطرق يتـكون بناءالحضارة.

ويطلق اصطلاح الوظيفة *Function* على المساهمة التى يقوم بها كل جزء من هذه الاجزاء فى بناء الحضارة . والوظيفة فى الانثروبولوجى تهتم بكل العمليات الديناميكية التى توجد فى الحضارة ، وهى بذلك وكما سنرى بعد تهتم بأكثر من مجرد وصف نماذج التصرف أو الظواهر الاجتماعية . وتبدو وظيفة أى جزء فيما يساهم به هذا الجزء فى مساندة العمليات الحيوية فى الـكل أى فى الحضارة ، ووظيفة أى نظام اجتماعى تتمثل فيما يساهم به من مساندة فى طرق الحياة أى فى البناء الـكلى للحضارة .

---

(١) *Adamson Hoebel, Man In The Primitive World (W. Y., 1958)*

# الاختراع والانتشار الحضارى

من الواضح أن أى نموذج حضارى سواء أكان نوعا من الخبرة الفنية أو طريقة للسلوك نحو الآخرين أو أسلوبا فى الكلام أومظهرا دينيا للعبادة أو اى إنتاج يتعلق بهذه النماذج ، لابد وأن منشأه فى الأصل كان نوعا من الاختراع لشخص ما فى مكان ما . وعلى الرغم من أن بعض النماذج الحضارية وما يتعلق بها من إنتاج لابد وأنها قد ظلت فى المكان الذى نشأت فيه مع ادخال بعض التعديلات الطفيفة أو الكبيرة عليها ، فان كثيرا من التصرفات الأخرى قد انتشرت إلى الحضارات المجاورة حيث اصبحت موضوعا للتغيير والتعديل بمرور الزمن . ونتيجة لكل هذا أصبح كل من الاختراع ***Invention*** والانتشار ***Diffusion*** موضوعا أساسيا فى دراسة التغير الحضارى .

وللاختراع شكلان أساسيان ، أحدهما أولى ويتضمن الاكتشافات ذات الأسس الجديدة ، والشكل الآخر ثانوى ويتضمن ما أمكن إدخاله من استخدامات جديدة للشكل الأول بعد أن أصبح معروفا ، فالقوس مثلا يعتبر إختراعاأوليا ، وذلك حينما اكتشف شخص ما أن قطعة الخشب القابلة للانثناء يمكن إذا شد فى طرفيها وتر أن تكون مصدراً لقوة معينة . وعلى الرغم من أننا لانعرف بطريقة مؤكدة متى وأين اخترع القوس[1] ،وعلى الرغم من أننا لانعلم أيضاً الطريقة الأولى التى استعمله بها مخترعه ، فانه من الواضح أن اختراع القوس قد استغل فى نواح أخرى كثيرة يعتبر كل منها فى حد ذاته اختراعا ثانويا ، كاستخدام القوس فى قذف الرمح واشعال النار ، وفى كل الآلات

---

(١) يرجح أن ذلك كان فى العصر الحجرى القديم الاعلى فى مكان ما من العالم القديم .

الموسيقية التى تقوم فكرتها على الأقواس كالبيانو والكمان والعود وإلى آخر ذلك من الاختراعات الثانوية الأخرى . ويمكن أن تقول نفس الشيء فيما يتعلق بكل من البخار والكهرباء عندما عرف لأول مرة أن لكل منهما قوة معينة ، وما ظهر بعد ذلك من اختراعات ثانوية متعددة تقوم أساسا على فكرة البخار أو الكهرباء كالآلات الحديثة ووسائل النقل المختلفة .

وبقدر ما نعلم عن نشأة الاختراعات الحديثة والأشخاص الذين يرجع اليهم فضل اكتشافها أو اختراعها، فان معلوماتنا تعتبر ضئيلة جداً بالنسبة لكثير من الاختراعات الأولية الأساسية التى تميزت بها الحضارات الانسانية كاستخدام النار واختراع القوس واستخداماته المختلفة ، والفنون الزراعية واستئناس الحيوان واختراع العجلة والكتابة واكتشاف المعادن واستخدامها وغير ذلك من الاختراعات والاكتشافات التى قامت عليها الحضارات فى قارات العالم أجمع ، بل إن معلوماتنا عن كل ذلك لاتزيد عن كونها نشأت لأول مرة فى مكان ما من الشرق الأدنى،فى فترات تتراوح بين عشرة آلاف سنة قبل الميلاد وبداية العصر المسيحى، ثم عن طريق الانتشار وصلت كل هذه الاختراعات إلى الأماكن التى توجد فيها فى الوقت الحاضر ، وحيث أدخل عليها كثير من التعديلات عن طريق عدد كبير من الاختراعات الثانوية .

وإذن فلا يزال علماء الانثروبولوجى يجهلون الكثير عن زمن ومكان نشأة هذه الاختراعات ، كما أنهم لازالوا يدرسون عمليات الاختراع والانتشار وكيف ساهمت هذه العمليات فى التغير الحضارى ، فالشرق الأدنى كما نعلم قد استغل كثيرا من الاختراعات فى مختلف الفنون وما صاحب ذلك من ظهور كثير من النظم الاجتماعية السياسة والدينية والاقتصادية وغيرها من مظاهر الحضارة التى عرفت فى مصر وبلاد ما بين النهرين . ولقد كان الامر كذلك

أيضاً ، بالنسبة لمناطق أخرى من العالم كالصين ، وحيث ظهرت فيها فى وقت من الاوقات اختراعات هامة مثل غزل الحرير وصناعة الورق والطباعة والبارود والبوصلة البحرية ، كما كان لامريكا الوسطى حضارتها التى تمثلت عند هنود المايا *Maya Indians* على شكل نوع من التقويم والكتابة والفلك وهندسة البناء والتنظيم السياسى المعقد ، كما كان لأوربا نصيبها من الحضارة فى عهد النهضة والذى ظهر على شكل اختراعات أولية منها ورق الطباعة والبارود والبوصلة ، تلك الاختراعات التى ربما تكون قد وصلتها عن طريق الانتشار ، إلا أنها قد ساعدت أوربا على تنمية الملاحة وما صاحب ذلك من عصور الاستكشافات والتجارة العالمية والاستعمار .

# الباب الثاني

# الانثروبولوچيا الاجتماعية

# الفصل الأول

## تقديم لعلم الأنثروبولوجيا الاجتماعية

- مقدمة
- التمييز بين الأثنولوجيا والانثروبولوجيا الاجتماعية
- التمييز بين علم الاجتماع والانثروبولوجيا الاجتماعية
- المجتمعات البدائية .

**مقدمة :**

يمكننا أن نميز فى مجال الأنثروبولوجيا الاجتماعية بين مرحلتين مختلفتين، تميزت المرحلة الأولى منهما بدراسة النظم الاجتماعية دراسة تطورية منذ بدء ظهور النظام حتى الوقت الذى كانت تقوم فيه الدراسة ، وكانت مثل هذه الدراسات تحاول أن تتعمق فى الماضى البعيد وهى تهدف بذلك إلى أن تصل إلى المراحل التى مر بها النظام الاجتماعى أو أى نموذج حضارى آخر منذ نشأته، حتى إذا كانت هذه النشأة فى عصور ما قبل التاريخ ، وهذا الطابع من الدراسة هو ما تميز به القرن التاسع عشر عامة .

ولقد تطلبت طبيعة هذه الدراسات تتبع التطور الحضارى على أساس أن أى نظام اجتماعى أو عادة اجتماعية لا بد وأنها قد مرت بسلسلة من مراحل التطور حتى وصلت إلى الشكل الذى توجد عليه ، كما ارتبط هذا الاتجاه أيضا ما عرف بالانتشار الحضارى بمعنى أن أى نظام اجتماعى أو تصرف اجتماعى لا بد قد نشأ فى مكان معين وزمان معين ثم انتقل بعد ذلك من مركز نشأته إلى أماكن أخرى ، فأى الأماكن إذن كان مركزا للنشأة وأى الاماكن قد استعارته من الأولى . وهناك من العلماء من آمن بوحدة النشأة بمعنى أن أى نظام لا بد قد نشأ لأول مرة فى مكان معين ثم انتقل إلى الأماكن الأخرى. وهناك من العلماء من آمن بتعدد النشأة ، بمعنى أن النظام الاجتماعى أو التصرف الاجتماعى رغم تشابهه من مجتمع لآخر فان هذا التشابه قد حدث تلقائيا فى أماكن متعددة ، ولم يكن بذلك نتيجة لاستعارته من مكان آخر . وعلى هذا الأساس فقد تطلبت دراسة النظم الاجتماعية والنماذج الحضارية المختلفة

البحث فى مسألة نشأتها وتطورها وانتشارها من مكان لآخر ، وقد كانت هذه النواحى الثلاث ، النشأة والتطور والانتشار من أهم ما اهتم به علماء الأنثروبولوجيا فى القرن التاسع عشر. وقد امكن بذلك أن نميز بين مدرستين، المدرسة التطورية والمدرسة الانتشارية ، وقد انضم إلى كل منهما عدد من العلماء الذين قاموا بدراسات هى فى الواقع الأساس الذى قام عليه علم الانثروبولوجيا الاجتماعية .

هذا عن المرحلة الأولى التى مر بها علم الانثروبولوجيا الاجتماعية فى القرن التاسع عشر، أما المرحلة الثانية فقد تميزت هى الأخرى بدراسة النظم الاجتماعية، ولكنها دراسة تختلف فى اتجاهها وطرقها عن تلك الدراسات التى أشرنا إليها فى المرحله الأولى، وذلك من ناحية أنها اهتمت بدراسة النظم الاجتماعية كما هى عليه فى وقت الدراسة بقصد تحديد وظائفها ووظائف أجزائها، وصلة كل هذا بالحضارة السائدة فى المجتمع موضوع الدراسة ككل دون تركيز على أى من نواحى النشأة أو التطور أو الاستعارة . وقد ظهرت بذلك مدرسة ثالثة هى المدرسة الوظيفية التى بدأت تحتل مكانها فى هذا المجال فى القرن العشرين .

وعلى ذلك فستشمل دراستنا للانثروبولوجيا الاجتماعية ما ساهم به العلماء فى المرحلة الأولى بمدرستيها التطورية والانتشارية فى القرن التاسع عشر أو فى القرن العشرين ، وما ساهم به العلماء فى المرحلة الثانية بمدرستها الوظيفية فى القرن العشرين .

وعلى الرغم من أن المدرسة الوظيفية تعتبر امتدادا للمدرستين التطورية

والانتشارية، إلا أن مفهوم علم الانثروبولوجيا الاجتماعية فى الوقت الحاضر يكاد يقتصر على مفهومه عند المدرسة الوظيفية ، أما الدراسات الانثروبولوجية التى تميز بها القرن التاسع عشر فتكاد تختص باسم الاثنولوجيا ، هذا بالإضافة إلى أن اصطلاح الانثروبولوجيا الاجتماعية نفسه لم يعرف إلا حديثا وفى أوائل القرن العشرين إذا أردنا التحديد ، أما قبل ذلك فلم يكن يستعمل فى انجلترا سوى اصطلاح الانثروبولوجيا أو الاثنولوجيا . ونجد هذا التمييز فى استعمال هذين الاصطلاحين واضحا فى انجلترا بالذات ، ولا غرابة فى ذلك إذا عرفنا أنها المكان الذى نشأت فيه المدرسة الوظيفية . وقد أرادت هذه المدرسة أن يكون هناك تمييز واضح بين دراساتها الانثروبولوجية والدراسات السابقة لها ، وأن تميز نفسها باسم جديد اختارت له اسم الانثروبولوجيا الاجتماعية *Sacial Anthropology* ، أما خارج انجلترا فلا تزال الدراسات الانثروبولوجية تعرف باسم الاثنولوجيا أو باسم علم الاجتماع . والواقع أنه من العسير أن نميز بين الاثنولوجيا وبين الانثروبولوجيا الاجتماعية فمجال الدراسة فيها يكاد أن يكون واحدا من ناحية أن كلا منهما يهتم بالحضارات وبالمجتمعات الأنسانية فى أى مكان من العالم ، كما أنهما يشتركان أيضا فى ناحية أخرى هى التركيز على دراسة المجتمعات والحضارات التى تعرف بالبدائية .

أما عن دراسة علم الانثروبولوجيا فى مصر فنجد أن مفهومه يكاد يتفق مع ما هو معروف به فى انجلترا أى مع مفهوم علم الانثروبولوجيا الاجتماعية فيها مع استخدام هذا الاصطلاح بالذات وذلك لأن دراسة هذا العلم قد ظهرت لأول مرة فى جامعاتنا المصرية على يد هؤلاء الذين أنشأوا المدرسة الوظيفية ومنها

ايفانز بريتشارد في جامعة القاهرة ورا تسكليف براون في جامعة الاسكندرية، كما استمرت هذه الدراسة بعد ذلك على يد عدد من الأساتذه المصريين الذين درسوا الأنثروبولوجيا الاجتماعية في نطاق المدرسة الوظيفية وأخص منها الاستاذ الدكتور على أحمد عيسى وطلابه الذين أشرف على توجيههم في هـذا المجال بجامعة الاسكندرية .

## التمييز بين الاثنولوجيا والانثروبولوجيا الاجتماعية

ذكرنا من قبل أنه ليس سهلا أن نميز بين الاثنولوجيا والأنثروبولوجيا الاجتماعية لاشتراكهما فى نواح كثيرة واتحادهما فى الاهتمام بدراسة المجتمعات البدائية ، ولكننا سنحاول مع ذلك أن نميز بينهما قدر الأستطاعة .

يرى ايفانز بريتشارد أنه يمكن التمييز بين هذين العلمين على أساس الهدف الذى يسعى إليه كل منهما ، ففى الوقت الذى تنحصر فيه مهمة الاثنولوجيا على تصنيف الشعوب من ناحية مميزاتها الجنسية والحضارية ثم تفسير توزيعها فى الوقت الحاضر أو فى الماضى عن طريق الهجرات والاختلاط والانتشار الحضارى ، نجد أن مهمة الانثروبولوجيا الاجتماعية تتمثل فى دراسة السلوك الاجتماعى عامة ، كما يبدو فى النظم السائدة كالأسرة ونسق القرابة والتنظيم السياسى والقانونى والدينى وما شابه ذلك من نظم ، ثم توضيح العلاقة بين هذه النظم ، هذا بالاضافة إلى أن الانثروبولوجيا الاجتماعية تدرس هذه النظم فى المجتمعات المعاصرة ، أو فى المجتمعات التى تدخل ضمن نطاق العصور التاريخية إذا وجد من المعلومات أو الوثائق ما يمكن الاعتماد عليه . ويقول بريتشارد فى ذلك :

« *The task of ethnology is to classify peoples on the basis of their racial and cultural characteristics and then to explain their distribution at the present time , or in the past times , by the movement and mixture of people and the diffusion of cultures .* »

«*Social anthropology has quite a different task to perform. It studies Social behaviour, generally in institutionalized forms, such as the family , kinship systems , political organization , legal procedures, religious cults, and the like , and the relation between*

*such institutions , and it studies them either in contemporaneous societies or in historical societies for which there is adequate informations of the kind to make such studies feasible .* » (١)

ويمثل بريتشارد هذا التمييز بين العلمين بقوله أنه « إذا كانت لدينا خريطة لتوزيع احدى العادات الخاصة بشعب من الشعوب اهتم بها عالم الاثنولوجيا على أنها دليل على تحرك السلالات أو هجرة الحضارة أو اتصال الشعوب بعضها ببعض فيما مضى ، بينما يهتم عالم الانثروبولوجيا الاجتماعية بالخريطة لأنها توضح جانبا من الحياة الاجتماعية ككل لهذا الشعب فى الوقت الحاضر ، ولا يهمه إن كان هذا الشعب قد استعار هذه العادة من شعب آخر لأن هذه ناحية لا يمكن التأكد منها ، وحتى لو أمكن تأكيد هذه الاستعارة فانه لن يعرف متى وكيف ولماذا حدثت . وعلى ذلك فاذا اتخذت بعض الشعوب التى تسكن شرق أفريقيا الشمس رمزاً لألهم رأى الاثنولوجيون فى ذلك أثراً من آثار العبادة المصرية القديمة على هذه الشعوب بينما لا تهتم الانثروبولوجيا الاجتماعية بهذا الفرض الذى لا يمكن إثباته ، وإنما يكون إهتمامها مركزا على معرفة الصلة بين هذه الرمزية الشمسية وبين النسق الكلى للعقيدة وللعبادة عند هؤلاء الناس . وعلى ذلك ففى الوقت الذى يستفيد فيه كل من عالم الاثنولوجيا وعالم الانثروبولوجيا الاجتماعية بالبيانات الاثنوجرافية ، فان الغرض من استخدامهما لهذه البيانات يختلف . »(٢)

ونخلص مما سبق إلى أنه فى الوقت الذى تتفق فيه الاثنولوجيا مع الانثروبولوجيا الاجتماعية فى مجال دراستهما وهى حضارة المجتمعات البدائية

---

(١) *E. Evans - Pritchard , Social Anthropology ( London , 1951 ) pp. 4 - 5 .*

(٢) *Ibid , p . 11 .*

وخاصة البدائى منها ، نجد أن هدف كل منهما من هذه الدراسة يختلف ، ففى الوقت الذى يركز فيه عالم الاثنولوجيا على نشأة أو تطور أو استعارة نموذج حضارى بالذات نجد أن عالم الانثروبولوجيا يهتم بدراسة ما هو موجود فعلا من نماذج حضارته أو نظم اجتماعية وليس ما كان مفروضا أن يوجد منها عند نشأتها أو خلال المراحل اللاحقة لهذه النشأة ، كما يهتم علاوة على ذلك بدراسة النسق الحضارى ككل يؤثر فى بعضه ويتأثر ببعضه دون أن ينتزع هذ الكل جانباً معيناً يركز عليه دراسته وكأنه قد نشأ فى فراغ بعيدا عن الأجزاء الأخرى، كما سنرى فيما بعد حينما نتكلم عن هذه الناحية بطريقة أكثر تفصيلا .

## التمييز بين علم الاجتماع والانثروبولوجيا الاجتماعية

يهمنا فى دراستنا للأنثروبولوجيا الاجتماعية أن نوضح صلة هذا العلم بعلم الاجتماع خاصة وأن هناك من الصلات الوثيقة بين العلمين مايجعلهما امتداداً لبعضهما كما يمكن أن نعتبر علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية أحد جوانب علم الاجتماع الذى كرس نفسه لدراسة المجتمعات البدائية ، وسنستعرض فيما يلى وجهة نظر ايفانز بريتشارد فى التميز بين هذين العلمين ثم نعلق فيما بعد وجهة نظره هذه.

يقول بريتشارد :

*« When people speak of sociology they generally have in mind studies of particular problems in civilized societies. If we give this sense to the word, then The difference between social anthropology and sociology is a difference of field, but There are also important differences of method between them, The social anthropologist studies primitive societies directly, living among them for months or years, where as sociological research is usually from documents and largely statistical. The social anthropologist studies societies as wholes. He studies their ecologies, their economics, their legal and political institution, their family and kinship organizations, their technologies, their arts, etc. as parts of general social systems. The sociologisti's work, on the other hand is usually very specialized, being a study of isolated problems, such as divorce, crime, insanity, labour unrest. and incentives in industry. Sociology is very largely mixed with social philosophy at one end and social planning*

*at the other. It seeks not only to discover how institutions work but to decide how they ought to work and to alter them, while social anthropology has mostly kept apart from such considerations* (١).»

هكذا يميز بريتشارد بين علم الأجتماع وعلم الانثروبولوجيا الاجتماعية ، وأرى أنه قد وفق فى بعض النواحى ولم يكن موفقا فى البعض الآخر ، ويرجع عدم توفيقه إلى أن هذ التميز الذى وضحه انما ينطبق على علم الاجتماع فى القرن التاسع عشر وليس على علم الاجتماع فى المرحلة التى يجتازها حاليا والتى بدأها فى القرن العشرين تقريبا ، ذلك لأن علم الاجتماع حاليا لم يعد كما يقول بريتشارد يقصر اعتماده على الوثائق والاحصائيات وإنما يستخدم هذه الوثائق والاحصائيات إلى جوار الدراسة المباشرة أو الدراسة الميدانية التى أنكرها عليه بريتشارد وخص بها الانثروبولوجيا الاجتماعية . أما عن صلة علم الأجتماع بالفلسفة الاجتماعية فربما كان بريتشارد على حق أيضا إذا كان يعنى علم الاجتماع فى تلك المرحلة التى كان يهتم فيها بالدراسة التى تسودها الصبغة الفلسفية كما كان الحال فى القرن التاسع عشر وهى الدراسات التى مهدت لنشأة علم الاجتماع والتى عرف بها فلاسفة التاريخ من أمثال كانت وهجل وماركس وفيكو ، وكذلك الدراسات الاولى فى علم الاجتماع والتى قام بها علماء من أمثال أوجيست كونت وفرديناندتونيز واميل دوركايم ، الذين خلت دراساتهم من الجانب الميدانى تقريبا ، هذا علاوة على أن علم الاجتماع باتجاهه الحالى لكى يحتل مكانه بين العلوم الموضوعية النظرية وجدناه يبتعد تماما عن الفلسفة الاجتماعية والمجالات التطبيقية التى تقوم للاستفادة من النتائج التى يخرج بها ، ومن هذه المجالات التطبيقية الخدمة الاجتماعية والتخطيط الاجتماعى والتنسيق الاجتماعى وغيرها بعد أن قامت لهذا الغرض علوم تطبيقية مستقلة بذاتها تحاول أن تتجه بالمجتمع إلى الأوضاع التى يجب أن يكون عليها ، وهى

(١) *Evans-Pritchard op. cit. pp. 5-6*

تحاول بذلك تحقيق وجهة النظر الغائية التي تميزت بها الدراسات الاجتماعية الفلسفية قديما والتي لاشأن لها بعلم الاجتماع في الوقت الحاضر إلا من ناحية تزويده لها بنتائج دراساته التي يمكنها الاستفادة منها .

والواقع أن التشابه كبير بين علم الاجتماع والأنثربولوجيا الاجتماعية حتى لقد رأى البرفسور رادكليف براون وهذ أحد مؤسسي علم الانثروبولوجيا الاجتماعية تسمية هذا الأخير علم الاجتماع المقارن *Comparative Sociology* .

ومن كل ماسبق أرى أنه إذا كان هناك اختلاف بين علم الاجتماع وبين الانثروبوجيا الاجتماعية فانما يقتصر هذا الاختلاف على مجال الدراسة والذى يتمثل فى هذا التقسيم التقليدى بين العلمين ،وحيث يهتم الاول بدراسة المجتمعات الحديثة بينما يهتم الثانى بدراسة المجتمعات البدائية .

# المجتمعات البدائية

يهمنا ونحن فى مستهل دراستنا لمنهج الانثروبولوجيا الاجتماعية أن نحدد ما يعنيه اصطلاح «المجتمعات البدائية»، والتى هى مجال دراسة هذا العلم، ذلك لأن تحديد ماهية المجتمع البدائى كان ولا يزال مجالا للجدل والمناقشة بين العلماء ، الذين اختلفوا من ناحية أى المجتمعات يمكن أن يطلق عليه اصطلاح بدائى *Primitive* وأيها يطلق عليه على العكس من ذلك اصطلاح حديث أو متمدين *Civilized* وإن كان يسود بين الأنثروبولوجيين عامة مفهوم المجتمعات البدائية على أنها تلك المجتمعات التى تتميز بصغرها من ناحية مساحتها وعدد سكانها ، والتى تتميز فى الوقت نفسه ببساطة مايسود فيها من علاقات اجتماعية وخاصة ماتعلق من هذه العلاقات بالنواحى الاقتصادية والفنية والعلمية وتقسيم العمل .

ولعله مما يفيدنا فى توضيح هذه الناحية أن نستعرض هنا رأى الأستاذ الدكتور على أحمد عيسى [1] فى تحديده للمجتمع البدائى ، وهو يرى أنه المجتمع الذى يتميز بالخصائص الخمس التالية :

---

١ — رئيس قسم الدراسات الاجتماعية بالجامعة الليبية ، كما كان أول أستاذ مصرى يشغل كرسى الاجتماع والانثربولوجى بجامعة الاسكندرية ، حاصل على دكتوراه العلوم فى الانثروبولوجيا الاجتماعية من جامعة أوكسفورد ، وقد مزج فى دراسته بين الاجتماع والانثروبولوجيا الاجتماعية . قام بدراسات ميدانية فى الريف الانجليزى وبين قبائل نيام نيام وفى حى القبارى بالاسكندرية وبين القبائل العربية فى برقة . من مؤلفاته ، المجتمع العربى، ١٩٦١ ، والانثروبولوجيا الاجتماعية ( باللغة الانجليزية ) ، ١٩٦٤ ، كما قام بترجمة كتاب « المجتمع » لماكيفر وبيج إلى اللغه العربية .

١ — الاعتماد فى المعيشة على البيئة الطبيعية إلى أقصى حد ممكن .

٢ — الارتباط بنظام معين للقرابة .

٣ — إنعدام تقسيم العمل إلا ماتعلق منه بالسن والنوع .

٤ — الاعتقاد فى السحر .

٥ — الجهل (١).

وواضح أن هذا الرأى يتفق إلى حد كبير مع ماعرضناه عن مفهوم المجتمع البدائى وخاصة فيما يتعلق بيساطة النظم الاقتصادية وضآلة تقسيم العمل فيه ، كما يضيف الرأى إلى ذلك عدداً آخر من الخصائص التى تتصل بنظم النسب والقرابة والاعتقاد فى السحر والجهل . ويرى الدكتور عيسى فى كتابه أن مجتمع النوير فى السودان يعتبر مثالا نموذجيا لمجتمع بدائى تنطبق عليه هذه الخصائص التى ذكرها .

وإذن فكلمة بدائى التى تستخدم فى الدراسات الانثروبولوجية لاتعنى بالضرورة أن المجتمعات التى توصف بهذه البدائية أسبق فى الزمن عن غيرها من المجتمعات الاخرى ، كما انها لاتدل فى الوقت نفسه على اختلافها فى نواح أخرى كالجنس أو التوزيع المكانى ، وإنما تتميز فقط بما يسودها من ظروف اجتماعية خاصة لم تسر فى تطورها ماسارت عليه فى المجتمعات الاخرى ، وقد خلقت منها بذلك مجتمعات تختلف اجتماعيا وحضاريا عن المجتمعات التى توصف بأنها حديثة او متمدنية . وعلى هذا الأساس نرى أن اختيار كلمة بدائى لوصف هذه المجتمعات يعتبر اختيارا غير دقيق وهو بالتالى غير موفق ، ولكن رغم

---

(١) *Aly A. Issa , Social Anthropology (Cairo , 1964) pp. 279 - 280 .*

هذا فقد اخذت هذه التسمية طابعها الاصطلاحى العلمى الذى يتمسك به علماء الانثر بولوجيا منذ قيام هذا العلم حتّى الآن .

وبهذا نكون قد قدمنا فى هذا الفصل من الكتاب لعلم الانثروبولوجيا الاجتماعية وميزنا بينه وبين كل من علم الاثنولوجيا وعلم الاجتماع ، وأرى بعد ذلك أن نستعرض فى الفصول المقبلة من الكتاب طرفا من النشاط الانثروبولوجى فى القرن التاسع عشر وهو مااعتبرناه الأساس الأول الذى قام عليه علم الانثروبولوجيا الاجتماعية ، هذا الاساس الذى يتمثل فى المدرسة التطورية ثم فى المدرسة الانتشارية .

# الفصل الثانى

# مبدأ التطور الحضارى

- مقدمة
- رواد المدرسة التطورية
- نقد المدرسة التطورية

# مبدأ التطور الحضاري

*Cultural Evolutionism*

**مقدمة :**

بدأ علم الانثروبولوجيا يأخذ مظهره العلمي حوالى منتصف القرن التاسع عشر حينما بدأ العلماء يهتمون بدراسة الحضارات وتطورها . ولقد شجع على هذا الاتجاه العلمي عدد من العوامل التى يمكن نذكر منها تقدم الدراسات الخاصة بعصور ما قبل التاريخ فى أوربا وفى عدد من أجزاء العالم الأخرى ، وقد جاء هذا التقدم نتيجة طبيعية لتقدم الكشوف والدراسات الأثرية ، كما شجع على هذا الاتجاه أيضاً زيادة المعرفة عن المجتمعات البدائية وذلك عن طريق الرحالة والمبشرين والجنود الذين كانوا يعودون إلى بلادهم فيحكون عما رأوه فى تلك البلاد من عادات وعقائد وفنون ، هذا وعلاوة على ما كان يسجله بعضهم من بيانات وملاحظات عن هذه المجتمعات مما خلق الرغبة عند بعض العلماء فى دراسة هذه المجتمعات بطريقة مقصودة ومنظمة . هذا ويمكن أن نضيف إلى هذين العاملين عاملا آخر شجع بدوره على هذه الدراسات الأنثروبولوجية ، وهذا العامل يتمثل فى ظهور مشكلةهامة بين الباحثين شجعت الرغبه فى حلها على القيام بدراسات تدور حول المجتمعات البدائية ، أما هذه المشكلة فهى تحديد العلاقة بين حضارة المجتمعات البدائية وبين الحضارات المتقدمة فى أوربا وأمريكا ، وهل هذه الحضارات المتقدمة امتداد للحضارات البدائية أو تطور لها، بمعنى هل تمثل المجتمعات البدائية بوضعها الحاضر المراحل الأولى التى اجتازها المجتمع الانسانى ، وهل تكشف دراستها عن الظروف والأوضاع التى كان عليها المجتمع الانسانى فى أول أمره ؟

لقد كانت هذه المشكلة بالذات بداية للتفكير الأنثروبولوجى العلمى وبداية لظهور ما يعرف بمبادىء التطور الحضارى والتى ظهرت واضحة فيما كتبه عدد من العلماء الذين يعتبرون أصحاب هذا المبدأ التقليديين وعلى رأسهم من الانجليز تايلور ومن الامريكان مورجان . ولقد شجع العلماء الانجليز على القيام بمثل هذه الدراسات خضوع الجزء الأكبر من المجتمعات البدائية فى فى القرن التاسع عشر للنفوذ الانجليزى ، وكان هذا بالذات عاملا فعالا على تسهيل مهمة العلماء الانجليز لارتياد هذه المناطق ومحاولة دراستها ، ولا عجب والأمر كذلك أن نجد أن الجانب الأكبر من الدراسات الأنثروبولوجية الأولى قد قام أساسا على أيدى هؤلاء العلماء الانجليز كما سنرى بعد . أما عن العلماء الأمريكيين فقد شجعهم هم الأخر على القيام بمثل هذه الدراسات ما كان يخضع لهم من مجتمعات بدائية تتمثل فى المجتمعات الهندية التى تسكن الولايات المتحدة والتى كانت بدورها مجالا غنيا للتدريب الأنثروبولوجى العلمى ، وقد وجد فيها مورجان فرصته لذلك .

وعلى الرغم من أن مبدأ التطور عامة كان معروفا من قبل فى الدراسات البيولوجية وخاصة بعد أن نشر تشارلس داروين فى سنة ١٨٥٩ كتابه ( أصل الأنواع ) فان مبدأ التطور البيولوجى هذا لم يكن هو المحرك الأساسى لمبدأ التطور الحضارى ، كما لم يكن هو الدافع المباشر لظهور الآراء الخاصة بالتطور الحضارى ، مما يمكن أن نقول معه بأن التطور الحضارى لم يكن إمتدادا للتطور البيولوجى وإنما يعتبر مستقلا فى تكوينه بما يتفق وتطور الحضارات ، هذا علاوة على أن استخدام معنى التطور فى علم الاجتماع أو فى الانثروبولوجيا لم يكن تقليداً لنظرية داروين لأن الواقع يشهد بغير ذلك إذا علمنا أن فكرة التطور كانت موجودة عند علماء الاجتماع قبل ظهور مبدأ داروين بعد سنوات،

فقد أشار إليها سبنسر فى دراسته لتطور المجتمع الانسانى من الشكل البسيط إلى الشكل المعقد ، كما كانت هذه الناحية التطوريه واضحة عند كونت فى دراسته التفصيلية التى عرفت بقانون الحالات الثلاث ، وكما اتجه كل من سبنسر وكونت إلى اعتبار التقدم *Progress* غاية التطور نجد أن علماء الأنثروبولوجيا قد اتجهوا نفس الاتجاه تقريبا .

وسنستعرض فى الصفحات المقبلة عددا من الآراء التى قيلت فى التطور الحضارى والتى تعتبر الأساس الذى قامت عليه الدراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية وذلك بالنسبة لعدد من العلماء الذين يعتبرون رواداً فى هذا المجال .

# رواد المدرسة التطورية

ينتمى إلى المدرسة التطورية عدد كبير من العلماء الذين قاموا بجهود متفاوته فى دراساتهم ، وسنكتفى فى هذا الفصل بأن نستعرض معا أهم النتائج التى توصل إليها هؤلاء العلماء ، ونلمس إلى أى مدى اتفقوا أو اختلفوا حول هذه النتائج أو الآراء .

**لويس مورجان** *Lewis Morgan* ( ١٨١٨ – ١٨٨١ ) :

هو أحد العلماء الامريكيين الذين ساهموا بنصيب كبير فى الدراسات الانثروبولوجية وخاصة برأيه فى تطور التاريخ البشرى والذى وضحه فى كتابه *Ancient History* ، والذى أعلن فيه « أن تاريخ الجنس البشرى واحد فى مصدره وفى خبرته وفى تقدمه » .

*"The history of human race is one in source, one in experience, and one in progress."* (١)

ومورجان بتقريره هذا قد أخضع كل المجتمعات الانسانية فى تطورها لقانون واحد ، وقد شرح رأيه هذا بأن هناك حقيقة لا يمكن انكارها هى أن الانسان فى مجتمعاته المختلفة قد وجد فى الماضى ويوجد فى الحاضر وهو يجتاز درجات مختلفة من الحضارة . وقد بنى مورجان على أساس هذه الحقيقة مبدأه فى تتابع المراحل الحضارية والتى اطلق عليها اصطلاح درجات الحضارة *Cultural Statuses* ، ويقول فى ذلك إن الحضارة فى أى مجتمع لا بد أن تسير فى تطورها وفق مراحل معينة حددها كالتالى :

---

(١) *Lewis Henry Morgan, Ancient History (Chicago,) 1907.p.XI*

١ — المرحلة الوحشية الدنيا *Lower Status of Savagery* ، وهى مرحلة طفولة النوع الانسانى ، حيث لم يكن الانسان خلالها أكثر تقدما من الحيوان إلا قليلا ، وقد تميزت هذه المرحلة بأن الانسان فيها كان يعيش فى موطن نشأته فى الغابات المدارية أو شبه المدارية ، كما كان يسكن الأشجار فى بعض الأوقات وذلك خشية الحيوانات المفترسة على الأقل ، أما غذاؤه فكان قاصرا على الجذور والفواكه أو أية ثمار أخرى ، هذا ويغلب على الظن أنه قد تكونت له فى هذه الفترة أصوات يتفاهم بها . ويرى مورجان أنه لم يوجد خلال العصور التاريخية أى انسان ظل يعيش فى مثل هذا المستوى البدائى ، رغم أن هذه المرحلة لا بد وأنها قد مكثت عدة آلاف من السنين ، كما أنها تعتبر المرحلة الانتقالية بين الحيوان والانسان .

٢ — المرحلة الوحشية الوسطى *Middle Status of Savagery* ، وقد تميز الانسان خلال هذه المرحلة بتقدمه عما كان عليه فى المرحلة السابقة ، إذ تبدأ هذه المرحلة باهتداء الانسان لأنواع جديدة من الأطعمة كالأسماك ، وبمعرفة هذا النوع الجديد من الغذاء بدأ الانسان يخرج من الغابة وراءه وانتشر بذلك على طول الأنهار والسواحل ، كما انتشر بالتالى فى مساحات أكبر من الأرض ، ولقد تميزت هذه المرحلة أيضا باكتشاف النار واستخدامها .

٣ — المرحلة الوحشية العليا *Upper Status of Savagery* ، وتبدأ هذه المرحلة باختراع القوس الذى أصبح الحيوان باختراعه الغذاء الأساسى للانسان ، كما أصبح الصيد عمله الأساسى ، هذا علاوة على ما تميز به الانسان خلال هذه المرحلة من تقدم بسيط فى بعض الفنون وفى بعض الأشكال من التنظيم الاجتماعى والدينى .

٤ — المرحلة البربرية الدنيا [1] Lower Status of Barbarism ، وتبدأ هـذه المرحلة بمعرفة الصناعات الفخارية ، كما تتميز بناحية أخرى هامة هى بداية التمييز بين الانسان من مـكان لآخر وذلك بعـد أن كنا فى المراحل السابقة نتـكلم عن الانسان عامة فى زمن معين دون أن نتعرض للمـكان ؛ والصفة العامة للمرحلة البربرية هى استئناس وتربية الحيوان والزراعة .

٥ — المرحلة البربرية الوسطى Middle Status of Barbarism ، وهى مرحلة ازدهار للمرحلة السابقة من ناحية انتشار استئناس الحيوان والزراعة ، ومعرفة الانسان لعملية الرى وبناء المساكن من الأحجار وغير ذلك من المظاهر الحضارية .

٦ ـ المرحلة البربرية العليا Upper Status of Barbarism ، وتبدأ بمعرفة صهر الحديد واستخدامه ، كما تتميز هذه المرحلة بظاهرة حضارية هامة هى اختراع الانسان للـكتابة واستخدامها . ولم يـدخل ضمن هـذه المرحلة سوى نصف الـكرة الشرقى الذى تميز بتقدمه فى الانتاج بدرجة فاق بها كل ما كان عليه فى المراحل السابقة مجتمعة ، كما تميزت هذه المرحلة أيضا بازدياد عدد السـكان فى العالم كثيرا عما كان عليه من قبل .

هذه هى المراحل الست الأولى التى حددها مورجان ، وهو يرى أن المراحل الثلاث الأخيرة تميزت بالاستخدام البطىء والتدريجى للخبرات الفنية ، كما تميزت ببداية ظهور عدد اكبر من النظم الاجتماعية ، فاذا اجتاز المجتمع هذه المراحل الست بدأ يدخل بعد ذلك المرحلة السابقة وهى مرحلة المدنية وتتميز باختراع الـكتابة الصوتية وبداية المدنية الأوربية كما هى معروفة حاليا [2] .

---

(١) البربرية اصطلاح فى اللغات الاوربية يعنى الانسان الهمجى الذى لا تقيده قوانين أو خلق أو عادات حسنة .

(١) Morgan, op· cit , p 18

ويرى مورجان أن هذا التتابع الحضارى ضرورى لأنه يتفق والمنطق الطبيعى للعقل الانسانى . كما يرى أن الحاضرات المعاصرة قد مرت أو لاتزال تمر بهذه المراحل، وقد مثل لذلك بأن حضارة سكان استراليا الاصليين *Australian Aborigines* تحمل معالم المرحلة الثانية ( الوحشية الوسطى ) ، كما تحمل حضارة البولينيزيين *Polenesians* معالم المرحلة الثالثة ( الوحشية العليا ) ، وتجتاز قبائل هنود الايروكوا *Iroquois* فى الولايات المتحدة المرحلة الرابعة ( البربرية الدنيا ) ، وقبائل هنود الزونى *Zuni* فى جنوب غرب الولايات المتحدة المرحلة الخامسة ( البربرية الوسطى ) ، أما حضارة اليونانيين فى عهد هومر أى فى القرن السادس قبل الميلاد فكانت تجتاز المرحلة السادسة ( البربرية العليا ) . وأخيرا يذكر مورجان أن الحضارة الغربية فى عصورها التاريخية المختلفة تعتبر ممثلة للمرحلة السابقة ، أما عن المرحلة الاولى ( الوحشية الدنيا ) فلم يجد مورجان أى مجتمع انسانى لايزال يجتازها كما يضيف إلى ذلك أنها لم توجد اطلاقا فى العصور التاريخية ، كما يرى أنها كانت وقفا على الانسان القديم فقط .

ويواصل مورجان حديثه عن هذه المراحل الحضارية بقوله أنه ليس من الضرورى أن تجتاز حضارة كل مجتمع هذه المراحل جميعا وانما قد يحدث أن تنتقل الحضارة إلى مرحلة أخرى أكثر تقدما دون أن تمر بالضرورة بمرحلة أو بعدد من المراحل الوسطى ، ويحدث هذا نتيجة الاتصال بحضارة أرقى ، كما يرى أيضا أن هذه المراحل لاتنطبق على الحضارة ككل وإنما على كل مظهر حضارى على حدة كأن تمر العقيدة الدينية مثلا بهذه المراحل أو أن تمر بها الأسرة أو الزواج أو أى مظهر حضارى آخر .

ويمكن أن نمثل لهذه الناحية بالدراسة التى قام بها مورجان لتطور الزواج والأسرة ، وقد رأى أن هاتين الظاهرتين مرتا بعدد كبير من المراحل التى بدأت بمرحلة الاباحية الجنسية *Promiscuity* حتى وصلتا إلى المرحلة

الأخيرة التى تتمثل فى الزواج المونوجامى *Monogamy* ، وبالأسرة كما هى معروفة فى أغلب المجتمعات الانسانية فى الوقت الحاضر . وهذا يعنى أن هاتين الظاهرتين قداجتازتا فى تطورهما عددا من المراحل الوسطى، مثل مرحلة الزواج الجمعى *Group Marriage* ، ومرحلة الأسرة الأموية *Matriarchat Family* ثم مرحلة الأسرة الأبوية *Patriarchal Family* .

**ادوارد تايلور** (١) *Edward Tylor* ( ١٨٣٢ — ١٩١٧ ) :

يتفق هذا العالم الانجليزى مع مورجان الأمريكى فى مبدأ التتابع الحضارى. وذلك لأنه يرى أن أى نظام انسانى لا يخرج عن كونه تركيبا طبقيا تمثل طبقاته المراحل المختلفة التى مر بها النظام ، كما يرى أن هذه النظم على الرغم من إتحادها فى طريقة تكوينها وتطورها فى مختلف أجزاء الأرض إلا أنها تكونت فى الوقت نفسه بطريقة مستقلة . ويعبر تايلور عن هذا الرأى بقوله .

*" The institution of man are as distinctly stratified on the earth on which he lives. They succeed each independent of what seem the comparatively superficial differences of race and language, but shaped by similar human nature acting through successively changing conditions in savage, barbaric, and civilized life".* (٢).

---

١ — تولى تايلور استاذية أول كرسى أنشىء للانثروبولوجى فى جامعة أوكسفورد، وقد بدأ حياته الانثروبولوجية ابتداء من عام ١٨٥٦ حينما قام بزيارة للمكسيك لهذا الغرض ، ثم فى سنة ١٨٨٤ بزيارة لقبائل هنود البويبلو فى جنوب غرب الولايات المتحدة ، وقد أهتم فى دراساته بعدد من النواحى المختلفة كما اشتهر بنظرية فى أصل الدين ، ومن كتبه الهامة .

*1 – Researches in to the Early History of Mankind, 1865.*

*2 - Primitive Culture, 1871.*

*3 – Anthropology, 1881.*

(٢) *" On a Method of Investigating the Development of Institutions".*

مقالة نشرها تايلور بهذا العنون فى مجلة المعهد الانثروبولوجى الملكى لبريطانيا وارلندة. — مجلد ١٨ سنة ١٨٨٨ .

ونلمس من هذا النص إلى أى مدى يتفق تايلور مع مورجان الانجليزى فى رأيه عن التتابع الحضارى بل لقد استعمل تايلور نفس الأصطلاحات التى أطلقها مورجان على المراحل الحضارية .

وكما درس مورجان تطور ظاهرتى الزواج والأسرة ، درس تايلور تطور ظاهرة الدين أو العقيدة ، وقد خرج من دراسته بعدد من النتائج منها أن كل العقائد الدينية ظهرت نتيجة للتفسير الخاطىء لعدد من الظواهر التى كان يقابلها الانسان كالاحلام والأمراض والنوم والاستيقاظ والحياة والموت ، وكان لظاهرتى الأحلام والموت بالذات أثر كبير فى توجيه الأنسان نحو أفكاره وعقائده الدينية ، فقد هدته الأحلام إلى فكرة الثنائية بين جسد وروح وذلك بعد أن كان الأنسان القديم يرى نفسه وهو نائم يتنقل فى خفة من مكان إلى آخر ويقوم بأعمال يعجز عن القيام بها أثناء يقظته ، كما رأى أن الآخرين يتفقون معه فى هذه الناحية ، لأنه كان يراهم معه فى أحلامه . ويرى تايلور أن فكرة الروح التى اهتدى اليها الانسان هى الأساس الذى قامت عليه الأديان ، فالانسان كان يعتقد أن الروح تفارق جسده أثناء النوم ثم تعود اليه عند اليقظة وأن الموت ليس إلا نوما طويلا ، فارقت الروح فيه الجسد ولم تعد اليه . ولقد ارتبطت هذه الأفكار الدينية الأولى بعدد من الطقوس كما ارتبطت بظاهرة تقديم القرابين لأرواح الأسلاف التى تنتسب إليها الجماعة أو القبيلة جلبا لرضاهم ، وهكذا بدأت العقائد الدينية تظهر وتتطور من وجهة نظر تايلور .

ولقد أوضح تايلور فى دراساته عالمية العقائد الدينية ، كما وضع اصطلاح *Animism* ليعبر به عن الشكل الأول لهذه العقائد . هذا وقد أوضح تايلور أغلب آرائه هذه فى كتابيه *Early History of Mankind* و *Primitive Culture*

**ج. ما كلنان** *J. Mc Lennan* ( ١٨٢٧ — ١٨٨١ )

من العلماء الانجليز الذين كانوا يؤمنون بالقوانين العامة للتطور الاجتماعي ، وقد وضح آراءه حول هذا الموضوع في كتابيه *Primitive Marriage, 1865* ، *Studies In Ancient History, 1886* . ويتفق رأي ما كلنان في تطور الأسرة مع رأي مورجان من ناحية أن الاباحية الجنسية كانت تسود المجتمع الانساني الأول ، كما رأى أن هذ المجتمع كان يعيش على شكل جماعات توتمية صغيرة تتميز بانتسابها للأم ، وأن هذه المجتمعات كانت مستقلة سياسيا وفي حروب مستمرة قاتلة مع بعضها ، وقد اتجهت بها ظروفها إلى ممارسة الاجزوجامية نتيجة لعادة قتل الأناث عند ولادتهن مما أصبح ضروريا معه أن يحصل الرجال على زوجاتهم من القبائل الأخرى وعن طريق السبي عادة .

ويرى ما كلنان أن هذه المجتمعات الانسانية الأولى قد تطورت بالتدريج من مرحلة الاباحية الجنسية إلى المرحلة البولياندرية ، وقد حل بذلك مبدأ الانتساب إلى الأب بدلا من مبدأ الانتساب للأم ، ثم استمر تطور الأسرة حتى انتهت إلى الوضع السائد حاليا .

ولقد أثار ما كلنان بآرائه هذه عددا من النقاط التي أصبحت مجالا للجدل والمناقشة ومنها تركيزه على مبدأ الزواج عن طريقة السبي ومبدأ الاجزوجامية والتوتمية ، وقد حاول أن يدافع عن هذه الآراء بما هو موجود فعلا في المجتمعات البدائية المعاصرة ، ففي انتشار التوتمية في كثير من المجتمعات البدائية المعاصرة ما رأى فيه ما كلنان تعزيزاً لرأيه عن المجتمع الانساني الأول من هذه الناحية ، كما نجده يستبعد الفكرة التي تقول أن الشكل الاول للأسرة كان باتريركيا وذلك على أساس أن الموضوع السائد في المجتمعات البدائية في الوقت الحاضر هو مبدأ الأنتساب إلى الأم .

وفى محاولة ماكلنان لتفسير النتائج التى توصل إليها نجده وقد استبعد هذا التفسير على أساس بيولوجى أو نفسى ، وقد اتجه بدلا من ذلك فى تفسيره إلى أسس اجتماعية ، ففى تفسيره للزواج عن طريق السبى وهو أساس الاجزوجامية التى افترضها للمجتمع الانسانى الأول ، لم يلجأ إلى التفسير البيولوجى الذى يقوم على عـدم الرغبة فى معاشرة الأقارب أو المحارم ، وإنما لجأ إلى التفسير الاجتماعى الذى يتمثل فى قتل الاناث وفى الحروب وما صاحب هاتين الظاهرتين من نشأة القواعد الاجزوجامية ، كما وضح ماكلنان كيف أن نظام الانتساب للأب كان تطورا لنظام الانتساب للأم ، على أنه قد جاء نتيجة للأخذ بالنظام البوليندرى ومعيشة الأولاد تبعا له فى منزل الأب ، ثم نجد ماكلنان وقد أرجع عبادة الآلهة من الحيوانات والنباتات وما تعلق بها من رموز فى عدد من المجتمعات البدائية إلى أنها أشـكال متطورة عن التوتمية التى كانت تسود المجتمعات الانسانية الأولى .

وما كلنان بمحاولاته هذه قد ركز على ارتباط الظواهر الاجتماعية بعضها ببعض واعتمادها المتبادل على بعضها وذلك عندما نراه يصر على ضرورة تفسير الظواهر الاجتماعية اجتماعيا *Sociologism* وهو المبدأ الذى تعصب له دوركايم فيما بعد ووضحه فى أغلب دراساته وكتبه .

وكان لماكلنان بدراسته هذه الفضل فى صياغة ثلاث اصطلاحات اجتماعية كان هو أول من استخدمها ، ولا تزال تعتبر حتى اليوم اصطلاحات سوسيولوجية هامة ، وهذه الاصطلاحات الثلاثة هى :

١ — التوتمية *Totemism*

٢ — الاجزوجامية *Exogamy*

٣ — الاندوجامية *Endoamy*

وكان لما كلنان الفضل بذلك فى اضافة ثلاث كلمات جديدة إلى قاموس علم الاجتماع .

**جيمس فريزر** *James Frazer* **( ١٨٥٤ — ١٩٤١ ) :**

من الأسماء اللامعة بين هؤلاء الذين وضعوا الأساس الاول للانثروبولوجيا الاجتماعية، وقد وضح آراءه فى كتابه *The Golden Bought* والذى أخرجه فى ١٢ جزءا من سنة ١٨٩٠ إلى سنة ١٩١٥ ، وقد اختار فيه ناحية معينة ركز عليها دراسته وهى ظاهرة السحر . وقد خرج فريزر من دراسته بتحديد مراحل ثلاث تجتازها المجتمعات الانسانية فى تطورها ، وهى المرحلة السحرية ثم المرحلة الدينية وأخيرا المرحلة العلمية ، وقد ميز فريزر بين هذه المراحل الثلاث على الأساس الآتى :

١ — المرحلة السحرية : وهى المرحلة التى تميزت بها المجتمعات الانسانية الاولى، وحيث كان الانسان خلالها ينظر إلى الطبيعة كسلسلة من الحوادث التى تدور دون أى تدخل من الانسان .

٢ — المرحلة الدينية :وهى المرحلة التى بدأ الانسان خلالها يشعر بوجود كائنات روحية تفوق فى قواها قوى الانسان ، والتى يمكن عن طريق ارضائها أن يوجه قوتها لمصلحته .

٣ — المرحلة العلمية :هى المرحلة التى ظهرت بعد أن اخذ الانسان يفكر فيما حوله بطريقة علمية .

ويذكرنا قانون فريزر هذا بقانون الحالات الثلاث الذى وضعه كونت والذى رأى فيه أن المجتمع الانسانى يمر فى تطوره بالمراحل الثلاث : الالهية والميتافيزيكية والوضعية، وتكاد تتفق مراحل فريزر الثلاث مع مراحل كونت الثلاث ، ويدل هذا التشابه على تأثر فريزر بكونت فى هذه الناحية .

ومن العلماء الانجليز الذين ينضمون إلى المدرسة التطورية أيضاً هنرى مين *Henry Maine* ( ١٨٢٢ — ١٨٨٨ ) وقد اهتم هو الآخر مثل مورجان وما كلنان بتطور الأسرة إلا أنه كان يرجح على عكس منهما أن الشكل الأول والعالمى للأسرة هو الشكل الباتريركى ، وقد بنى على أساس أن السلطة المطلقة التى كانت للذكور وهو أساس الأسرة الباتريركية هو ما يفسر مبدأ الانتساب للذكور فى العصور التاريخية قديمها وحديثها .

ورأى هنرى مين هذا يختلف تماما مع رأى عالم سويسرى معاصر له وهو باخوفن *Bachofen* (١٨١٥—١٨٨٧)، بينما يتفق مع رأى مورجان وما كلنان وذلك حينما يرى باخوفن أن الاباحية الجنسية كانت الشكل الأول للأسرة فى كل المجتمعات الانسانية ، ثم تطورت إلى نظام الانتساب للأم والأسرة الأموية ، أما نظام الانتساب للأب والأسرة الأبوية ، فلم يظهر إلا فى مرحلة متأخرة من تاريخ الانسان .

هذا ويطلق على مبدأ التطور الذى نادى به هؤلاء العلماء الذين عرضنا لهم المبدأ الخطى *Lineal* لأنه يفترض وجود خط موحد تجتازه كل المجتمعات ، كما يطلق على نفس المبدأ أيضاً مبدأ التوازى *Barallelism* لأنه يفترض أن كل المجتمعات حتى ولو كانت منعزلة عن بعضها كلية لابد أن خط سير حضارتها يكون متوازيا مع خطوط الحضارات الأخرى.

**و . ريفرز *Rivers* . *W* ( ١٨٦٤ - ١٩٢٢ ) :**

يهمنا فى ختام هذا العرض السريع لآراء العلماء التطوريين أن نذكر شيئا عن أحد العلماء الذى يعتبر فى الواقع حلقة الوصل بين الدراسة التطورية والدراسة الوظيفية فى علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، وهذا العالم هو ريفرز . وعلى الرغم من أن ريفرز قد بدأ حياته كعالم نفس ، وعلى الرغم من أنه بدأ دراسته

للمجتمعات البدائية بقصد الدراسة النفسية إلا أنه تحول إلى الدراسة الأنثروبولوجية ، بل لقد ساهم بنصيب واضح فى وضع مناهج هذه الدراسة ، ولقد كان العامل الفاصل فى حياته العلمية هو اشتراكه فى الدراسة الحقلية التى قامت بها فى جزر المحيط الهادى البعثة التى أرسلتها جامعة كمبردج فى سنة١٨٩٨ لدراسة شعوب هذه الجزر والتى أختير ريفرز عضوا فيه بصفة عالم نفس .

وتعتبر دراسة ريفرز التى قام بها فى الهند لقبائل التودا إبتداء من سنة ١٩٠١ والتى نشرها بعنوان *The Todas* أهم ما قدمه إلى علم الانثروبولوجيا سواء من ناحية المعلومات العلمية التى ضمنها كتابه وهى النتائج التى توصل إليها بعد دراسة ميدانية مركزة ، أو من ناحية مناهج البحث الانثروبولوجى التى وضع أسسها أثناء قيامه بهذه الدراسة أيضا ، وخاصة ما تعلق منها بدراسة تاريخ الاسرة ونظم القرابة فى المجتمعات البدائية *Genealogical Method* ، هذا علاوة على أنه فى دراسته للتنظيم الاجتماعى للمجتمعات البدائية قد جمع بين أكثر من تفسير واحد فى تحليله للوقائع الاجتماعية ، ومن النواحى التى اهتم بها لتحقيق هذه الغاية الجمع بين الدراسة التاريخية ودراسة التصرفات الفردية والتصرفات الجمعية،وقد استغل فى ذلك دراسته الاساسية فى علم النفس الفردى، وعلى ذلك كان ريفرز يؤمن بأهمية التصرفات النفسية فى الحياة الاجتماعية عامة وفى البناء الاجتماعى بالتالى .

ولما كان ريفرز قد أشار إلى طبيعة البناء الاجتماعى وطبيعة العلاقات السائده بين أجزائه وأثر ذلك فى إيجاد تنظيم متكامل ومنظم فقد اعتبرت دراسته بذلك أساسا للدراسة التى تميزت بها المدرسة الوظيفية التى قامت فى إنجلترا على يد رادكليف براون ومالينوفسكى ، كما قامت فى الولايات المتحدة على يد عدد من العلماء الذين تأثروا بهما وعلى رأسهم لويدورنر *Lloyd Warner* .

ولقد أشار الاستاذ الدكتور على أحمد عيسى إلى أهمية ريفرز فى الدراسات الانثروبولوجية وأثره على المدرسة الوظيفية وذلك حين يقول :

« لقد وضع ريفرز القاعدة التى ترى أن البناء الاجتماعى يمكن أن يدرس عن طريق :

١ - وصف أشكاله المختلفة التى توجد فى أنحاء العالم .

٢ - تحليل كل شكل منها إلى عناصره المكونة له .

٣ - دراسة الصلة التى تربط هذه العناصر بعضها ببعض .

٤ - دراسة الوظيفة الاجتماعية لهذه العناصر ومعرفة كيف تتعاون هذه الوظائف لكى تتمكن فى النهاية من إيجاد تنظيم منظم ومتماسك .

وهذه النواحى تمثل تماما وجهة نظر الوظيفتين نحو البناء الاجتماعى فى الوقت الحاضر . »[1]

---

(١) *A. A. Issa, Op. cit. pp. 105-106*

## نقد المدرسة التطورية

قوبلت آراء المدرسة التطورية بكثير من النقد نظراً للبساطة وعدم الدقة التى حاولت بهما هذه المدرسة أن تعمم النتائج التى كانت تصل إليها فيما يتعلق بالتتابع الحضارى واخضاع المجتمعات على اختلافها فى كل زمان ومكان لقانون واحد تتطور تبعا له حضارتها وهى ما سمى بالمبدأ الخطى أو المبدأ المتوازى ، وكان هذا واضحا فى محاولة كل من مورجان وتايلور فى دراستهما لتطور حضارة المجتمعات الانسانية ، وكما اعتقد ما كلنان فى دراسته لنظم الزواج والأسرة فى المجتمعات البدائية والتى انتهى فيها إلى أن المجتمع الانسانى الأول لم يعرف الزواج والأسرة وأنه بدأ على أساس من الاباحية الجنسية . ولكى يزكى هذه النتيجة التى توصل إليها قال أن نظامى الأسرة والزواج لا وجود لهما فى المجتمعات البدائية أو إن وجدا فعلى أسس غير مستقرة أو ثابته ، كما حاول جهده أن يثبت أن المجتمعات البدائية فى مجموعها لا تزال تمارس الاباحية الجنسية . ولقد ثبت خطأ هذه النتائج جميعا فيما بعد وذلك حين تأكد للباحثين أن نظامى الأسرة والزواج موجودان فى كل المجتمعات البدائية دون استثناء ، كما يمكن أن نضيف إلى ذلك أنه ليس أدل على خطأ هذه الدراسات من اختلاف هؤلاء العلماء التطوريون فيما بينهم حول النتائج التى توصلوا إليها ، فما توصل إليها مورجان وباخوفن وما كلنان يختلف عما توصل إليه هنرى مين وادوارد وسترمارك ، وذلك على الأقل من ناحية النتائج التى تتعلق بنظامى

الأسرة والزوج . وأظن أن دراساتهم لو كانت قد قامت على أساس علمى ثابت وسليم ما كانوا قد اختلفوا فى النتائج التى توصلوا إليها هذه الاختلافات الجوهرية .

والواقع أن دراسات رواد المدرسة التطورية لم تكن تقوم على أساس علمى تجريبى ، وأظهر ما يعيبها أنها لم تقم على أساس متين من الدراسة الميدانية المباشرة،فمورجان وفريزر مثلا كانوا يحصلون على ما يريدون من بيانات عن طريق ارسال قوائم للأسئلة التى يريدون الحصول على إجاباتها إلى عدد من المراسلين أو الأصدقاء أو المعاف المقيمين بحكم عملهم فى المجتمعات البدائية ، وعلى هؤلاء أن يردوا على الأسئلة التى كان يطلبها هؤلاء الباحثون ، وعلى ذلك فالبيانات التى كانوا يبنون عليها دراساتهم كانت تصل إليهم بطريق غير مباشر .

هذا ما كان يحدث فى العادة أما إذا كان الباحث منهم يريد فعلا زيارة المجتمع الذى يدرسه فان هذه الزيارة لم تكن تزيد عن بضعة أيام أو بضعة أسابيع وهى فترة لا تكفى اطلاقا للقيام بمثل هذه الدراسات التى كانت تتطلب إقامة الباحث فى ميدان البحث الفترة المناسبة التى تتطلبها طبيعة الدراسة إذا أريد لهذا البحث أن يقوم مع أساس علمى يمكن الاعتماد عليه وعلى النتائج التى يخرج بها .

وعلى الرغم من أن هذه الطريقة غير المباشرة للدراسة وللحصول على البيانات تعتبر نقصا واضحا يكفى للحكم على فشل هذه الدراسات إلا أننا مع ذلك نستطيع أن نتلمس العذر لأعضاء هذه المدرسة وذلك لعدد من

الاسباب المختلفة ، منها أن اعدادهم لمثل هذه الدراسات لم يكن كاملا ، وعلى ذلك فقد تميزت دراساتهم فى هذا المجال بالاجتهاد فى مجموعها ، كما كان تنافسهم مع بعضهم يدفعهم إلى وضع فروض معينة يحاولون إثباتها بكافة الطرق ويجمعون لها من البيانات ما يتفق وهذه الفروض مما أبعد دراساتهم فى مجموعها عن أن توصف بأنها تقوم على أساس علمى سليم ، هذا بالاضافة إلى أن طريق أغلبهم فى الحياة كان يجب لو أنه سار طبيعيا أن يتجه بهم إتجاها آخر غير الدراسات الاجتماعية الأنثروبولوجية فما كلنان وباكوفن ومورجان كانوا محامين ، كما كان تايلور مترجما وفريزر أديبا وشاعرا ، أما ريفرز فكان كما قلنا عالم نفس .

وهكذا كانت المدرسة التطورية موضع نقد عريض وجاد ، ولكن على الرغم مما قوبلت به آراء هذه المدرسة من اعتراض يقلل من قيمة أبحاثها وقيمة النتائج التى توصلت إليها ، يمكن أن نقول فى الوقت نفسه بأن هذه المدرسة كان لها نصيب كبير من التقدير والفضل على الدراسات الأنثروبولوجية إذا راعينا النقط التالية :

۱ ـ إذا كان التطوريون قد انتهوا إلى نتائج خاطئة ، فقد كان خطأ هذه النتائج سببا فى اثارة الرغبة بين المشتغلين بالعلوم الانسانية للتأكد من صحتها أو لتصحيحها ، مما خلق بذلك عددا من الفروض التى قامت على أساسها دراسات كثيرة .

۲ ـ كان التطوريون أول من استخدم مبدأ الحضارة كمبدأ مستقل فى ذاته بعد أن كان لا يستخدم إلا مرتبطا بالجنس *Race* ، ونجد هذا واضحا

فى تعريف تايلور للحضارة والذى يؤكد فيه هذه الناحية حينما يقول « إن الحضارة أو المدنية هى ذلك الكل المعقد الذى يشمل المعرفة والعقيدة والفن والأخلاق والقانون والعادات ، وكل ما يمكن أن يكتسبه الانسان كعضو فى مجتمع . »

*" Culture or civilization is that complex whole which includes knowledge, belief, art, morals, law, custom and any other capabilities and habits acquired by man as a member of society."* (١)

٣ — كان التطوريون هم أول من وجه الاذهان إلى ضرورة وجود علم للحضارة ، وذلك بعد أن أعلنوا أن الظواهر الحضارية ليست ظواهر عشوائية أو ظواهر بدون نظام وإنما هى كبقية الظواهر الطبيعية والبيولوجية تخضع للقوانين العلمية والتعميم . وعلى الرغم مما وجه إلى محاولاتهم الخاصة بالتعميم الحضارى من نقد فانهم قد أدخلوا بهذه المحاولات طريقة منظمة فى دراسة الحضارة ، والطرق المنظمة هى أولى خطوات البحث العلمى المنظم . وقد وضع التطوريون بذلك أساس علم الأنثروبولوجيا الحضارية، وقداختلفوا بذلك عمن سبقوهم فى هذا المجال من الباحثين .

٤ — أثار التطوريون الاهتمام بالدراسة والبحث، وذلك عن طريق ما أعلنوه عن التتابع الحضارى ، وما قابلته هذه المحاولة من نقد وتحدى ، وما كان لهذا النقد وهذا التحدى من فضل فى توجيه الدراسات والابحاث الانثروبولوجية، وهذا

---

(١) *E. Tylor, Primitive Culture ( Boston, 1874 ) Vol. 1, p. 1*

التوجيه لم يكن معروفا من قبل ، وحيث كان معظم ما يكتب يعتمد على البيانات والتقارير التى يكتبها أو يرسلها أناس ما كان يمكن الاعتماد عليهم لعدم خبرتهم .

٥ ـ يمكننا أن نقرر أن الدراسات الأنثروبولوجية الميدانية قد بدأت بهذه المدرسة على يد بعض روادها من أمثال مورجان وتايلور وريفرز .

# الفصل الثالث

# مبدأ الانتشار الحضاري

- مقدمة
- المدرسة الامريكية
- المدرسة الانجليزية
- المدرسة الالمانية .

# مبدأ الانتشار الحضارى

## *Cultural Diffusionism*

**مقدمة :**

استعرضنا فى الفصل السابق آراء بعض علماء القرن التاسع عشر فى التطور الحضارى والتى تتمثل فى تلك الدراسات والنظريات المختلفة التى صورت تطور المجتمعات على أنه يوازى بعضه البعض الآخر ، لأن تطور أى مجتمع من وجهة نظر هؤلاء العلماء إنما يسير دائما فى إتجاه واحد *Unilinear* ، وقد تجاهلت هذه الآراء بذلك أهمية الانتشار كعامل فى بناء الحضارة ، وقد رأت بدلا من ذلك أن الحضارة تتغير قليلا ، أو كثيرا ، فى أوضاع مستقلة عن بعضها عن طريق الاختراع أو الاكتشاف أو الابتكار والتجديد ، كما تفسر مايوجد بين الحضارات من تشابه على أنه نتيجة لوحدة أو تشابه فى العمليات العقلية للانسان أمام الظروف أو المشاكل المتشابهة .

ونحن إذا استعرضنا فى هذا الفصل من الكتاب آراء مدرسة الانتشار الحضارى فإنما نكون بذلك أمام دراسات من نوع آخر تتجه فى دراستها للتطور الحضارى وجهة نظر أخرى غير تلك التى ميزت أصحاب المذهب التطورى ،وجهة نظر ترى أن نماذج الحضارة غالبا ما تستعار ، وأن تشابه النماذج الحضارية فى المجتمعات المختلفة لايكون نتيجة لتطور تلقائى أو مستقل وإنما نتيجة لظهور النموذج الحضارى لأول مرة عند شعب معين فى مكان معين وزمان معين ثم انتقاله بعد ذلك إلى المجتمعات الأخرى ، وهذه هى نقطة الاختلاف الرئيسية بين كل من التفكير التطورى والتفكير الانتشارى ، كما سنرى من دراستنا لهذا الفصل .

ولم تكن الدراسات الخاصة بمبدأ الانتشار الحضارى قاصرة على بلد بالذات وإنما وجدناها ممثلة فى كثير من البلاد ، ولكن مع ذلك كان للولايات المتحدة الأمريكية نصيب كبير من هذه الدراسات ، بينما لم تزدهر هذه الدراسات فى انجلترا على عكس ما كان عليه الأمر فيما يتعلق بالدراسات التطورية التى وجدناها مزدهرة فى انجلترا بالذات .

وسنستعرض فى هذا الفصل من الكتاب جانبا من أهم الدراسات التى تمثل هذه الناحية الانتشارية ، وهى تلك التى ساهم بها العالم الأمريكى كلارك ويسلر والعالم الانجليزى اليوت سميث والعالم الألمانى وليام شميدت ، وهؤلاء الثلاثة إنما يمثلون ثلاث مدارس فى الدراسات الانتشارية هى المدرسة الأمريكية والمدرسة الانجليزية والمدرسة الألمانية ، كما سنستعرض معا أوجه النقد التى وجهت إلى هذا النوع من التفكير .

## المدرسة الأمريكية

ويعتبر كلارك ويسلر Clark Wissler من أهم العلماء الأمريكيين الذين درسوا الانتشار الحضارى وقد ضمن دراسته فى كتاب بعنوان :

*The American Indian, 1922*

قام ويسلر بدراسة بين القبائل الهندية الأمريكية وخرج منها بمبدأه الذى أطلق عليه «مبدأ المساحة الحضارية والمساحة الزمنية *The Cultural Area and the Age Area*» وقد اتخذ من هذا المبدأ وسيلة لتصنيف الحضارات أو بمعنى أدق لتصنيف التجمعات الحضارية بالنسبة للمناطق الجغرافية .

وقد ميز ديسلر على هذا الأساس بين خمس عشرة مساحة حضارية بين سكان أمريكا الاصليين حدد منها فى أمريكا الشمالية المناطق التسع التالية :

١ — منطقة السهول *The Plains Area* وتشمل منطقة السهول العظمى فى أمريكا الشمالية .

٢ — منطقة الساحل الشمالى الغربى *The Northwest Coast Area* وتشمل ساحل المحيط الهادى من جنوب ألاسكا إلى أوريجون .

٣ — منطقة الجنوب الغربى *The Southwest Area* وتشمل جنوب غرب الولايات المتحدة وشمال المكسيك وجنوب كاليفورنيا .

٤ — منطقة الهضبة . *Plateau Area*

٥ — منطقة الاسكيمو . *Eskimo Area*

٦ — منطقة ما كنزى . *Mockenzie Area*

٧ — منطقة الغابات الشرقية . *Eastern V. oodland Area*

٨ — منطقة الجنوب الشرقى . *Southeastern Area*

٩ — منطقة كاليفورنيا .

وكما قسم ويسلر أمريكا الشمالية إلى تسع مساحات حضارية فقد قسم أمريــكا الجنوبية إلى ست مساحات ، منها منطقة الغابات المدارية فى شرق القارة من جيانا إلى الارجنتين ، ومنطقة بتاجونيا من الارجنتين حتى أقصى الجنوب ، ومنطقة الانديز على الساحل الغربى من أكوادور حتى شيلى .

وقد لاحظ ويسلر فى محاولته لتصنيف حضارات الهنود الامريكيين النواحى التـالية :

١ — أن نماذج أية حضارة بذاتها سواء كانت مادية كالأدوات والاوانى والمساكن أو غير مادية كنماذج التنظيم الاجتماعى والعقائد الدينية ، لاحظ أن هذه النماذج تميل إلى التجمع فى مناطق معينة سماها كما ذكرنا المساحات الحضارية *Cultural Areas* وتـكون هذه النماذج محصورة فى داخل هذه المناطق أو المساحات .

٢ — أن القبائل التى تدخل فى نطاق أى من هذه المناطق الحضارية تتميز بأن لـكل منها حضارة معينة ، ولـكنها فى الوقت نفسه تتميز وتشترك أو تتشابه كلها لدرجة كبيرة أو صغيرة فى نماذج حضارية بذاتها .

٣ — أن القبائل التى تسكن المركز الجغرافى للمساحة الحضارية تعتبر النماذج الذى يمثل المساحة من ناحية الاحتفاظ بـكل أو بأغلب ماتتميز به المساحة من نماذج .

٤ — يقل عدد النماذج الحضارية التى تتميز بها المساحة كلما ابتعدنا عن مركزها الجغرافى .

٥ — تتميز القبائل التى تقطن حدود المساحة أو بالقرب من هذه الحدود بنماذج مختلطة من عدد من المساحات الحضارية المختلفة .

وقد مثل ويسلر لذلك بمنطقة السهول فى أمريكا الشمالية وحيث يتجمع فيها حوالى عشرين نموذجا حضاريا منها :

١ — صيد حيوان البيزون [1] *Bison* للأكل ، دون أية معرفة بالزراعة أو صيد الأسماك .

٢ ـ استخدام الجلود فى عمل المساكن .

٣ ـ استخدام الكلاب للجر .

٤ ـ استخدام الأوانى الجلدية دون أى استخدام للاوانى الفخارية أو الأدوات المصنوعة من القش .

٥ — ترتيب المساكن عند انشائها على شكل دائرة (معسكرات دائرية)

٦ — الاهتمام بالناحية العسكرية والحرب وإنشاء جماعات من الذكور للدفاع

٧ ـ التنبوء بالغيب كوسيلة أساسية لارضاء الآلهة .

٨ ـ استخدام الدروع الدائرية .

٩ ـ ممارسة رقصة الشمس كشكل من أشكال الطقوس الدينية .

وقد وجد ويسلر أن كل أو معظم هذه النماذج ممثلة عند إحدى عشرة

---

١ — البيزون نوع من البقر البرى

قبيلة تحتل مركز المساحة الحضارية ، ثم تقل هذه النماذج كلما ابتعدنا عن المركز مع استبدال ما يغيب منها بنماذج أخرى غير معروفة عند قبائل المركز ، مثل استعمال الأوانى الفخارية بدلا من الجلدية ، أو ممارسة الزراعة بدلا من الاعتماد كلية على الصيد ، أما القبائل التى تعيش على حدود المساحة فلا تتميز إلا بعدد قليل من صفات المنطقة بالاضافة إلى صفات أخرى من المناطق أو المساحات المجاورة .

ولقد انتشر مبدأ ويسلر هذا واتخذ أساسا لتصنيف الحضارات فى أجزاء أخرى من العالم على أساس هذه المساحات الحضارية كما فعل رالف للينتون فى دراسته لمدغشقر .

ولقد أراد ويسلر أن يضفى على المساحات الحضارية معنى تاريخيا هو ما أطلق عليه المساحات الزمنية *Age Areas* ، وتقوم فكرة المساحة الزمنية على أساسين ، أولهما أن الصفات الحضارية تميل إلى الانتشار من المركز إلى جميع الجهات بدرجة واحدة ، وثانيهما أن المدى المساحى لانتشار أية صفة من الصفات يتناسب تناسبا طرديا مع أقدمية هذه الصفة بالنسبة للصفات الاخرى التى انتشرت داخل نفس المساحة ، أى أنه كلما اتسع المدى المساحى كلما كان هذا دليلا على قدم الصفة الحضارية ، فاذا فرض مثلا أنه كانت لدينا صفتان ا ، ب وانتشرت ا فى مدى أوسع من انتشار ب كان هذا دليلا على أن ا أقدم من ب .

وحسب هذا الرأى إذن فان الصفات الحضارية كلما بعدت عن مركز الانتشار كلما كان هذا دليلا على قدمها ، وعلى العكس من ذلك تكون الصفات أحدث كلما قربت من المركز الجغرافى للمنطقة . ويكون المركز على هذا الأساس

هو أكثر المناطق تمثيلا للساحة من ناحية مايتوفر فيه من عدد أكبر من الصفات ، كما تعتبر الصفات فيه أقدم عهدا منها فى المناطق الأخرى .

ولقد قوبلت آراء ويسلر بكثير من النقد فيما يتعلق بتحديد تاريخ النماذج الحضارية عن طريق استخدام المساحات الحضارية والمساحات الزمنية ، ومن أهم نقط النقد التى وجهت إلى آرائه :

١ — أن الصفات الحضارية نادرا ماتنتشر من المركز فى الاتجاهات المختلفة بدرجة متساوية ، وهذا يناقض فكرة ارتباط مدى الانتشار بالزمن ، فقد يكون هناك من العوامل مايمنع انتشار بعض الصفات فى اتجاهات معينة ، كالعوامل الجغرافية والاجتماعية التى قد تساعد على انتشار صفات معينة وقد تحد فى الوقت نفسه من انتشار صفات أخرى ، فقد تنتشر بعض الصفات فى اتجاه الطرق التجارية فى الوقت الذى يتعثر انتشارها فى جهات أخرى تنقصها هذه الطرق ، كما أن هناك من العوامل مايشجع أو لا يشجع على انتشار بعض الصفات فى اتجاهات معينة ، فالزراعة الجافة مثلا لا يمكن لها أن تنتشر من مكان لآخر إلا إذا توفر الماء للرى فى هذا المكان الآخر ، وعلى ذلك فلا بد أن يكون انتشار النماذج الزراعية ضعيفا فى المناطق الصحراوية أو شبه الصحراوية مثلا . ويمكن أن نضيف إلى ذلك أيضا أن هناك من الصفات الحضارية مايتميز ببطء الانتشار كالطقوس الدينية واللهجات وكل المظاهر اللامادية للحضارات ، وذلك على العكس من المظاهر المادية كالأدوات والمساكن والأوانى والملابس التى يكون انتقالها من مكان لآخر أكثر سرعة وسهولة .

٢ — تجاهل ويسلر أهمية عامل الاختيار فى الانتشار الحضارى فالشعوب تميل دائما إلى اختيار بعض الصفات التى تناسبها ورفض عدد من الصفات

الاخرى ، هذا بالاضافة إلى أن هناك من الصفات ما يكون مرغوبا فيه فى وقت من الأوقات ولا يكون كذلك فى وقت آخر .

وعلى ذلك نجد أن النقد الذى وجه إلى ويسلر يقوم على أساس أن عملية الانتشار ليست عملة ميكانيكية بحتة بالنسبة لكل النماذج الحضارية فى كل الأوقات ولكل المجتمعات وانما هى عملية معقدة تخضع لكثير من العوامل الحضارية والاجتماعية والجغرافية .

# المدرسة الإنجليزية

استعرضنا فى الصفحات السابقة رأى ويسلر الخاص بالمساحات الحضارية والذى يرى فيه أن العالم ينقسم إلى مناطق حضارية تتميز كل منها بتجمع عدد من النماذج الحضارية التى تنتشر داخل حدود كل منطقة . ويتضح من هذا الرأى أن صاحبه يأخذ بفكرة الانتشار ولكن فى حدود معينة تقتصر على منطقة أو مناطق بعينها،وهو بهذا يختلف مع عدد آخر من العلماء الذين يأخذون بفكرة الانتشار أيضا ولكنهم يرون أغلب مظاهر الحضارة فى العالم قدانتشر عن طريق الاستعارة من مناطق معينة بالذات وليس عن طريق الاختراع ، كما يرون فى الوقت نفسه أن أغلب الاختراعات الأساسيةلم تظهر سوى مرة واحدة أو مرتين على الأكثر ،ونظرا لندرة الاختراع فى رأى هؤلاء الأنثروبولوجيين فقد اتجهوا إلى التركيز على عامل الانتشار بل وإلى التطرف فى هذه الناحية وذلك حينما يميلون إلى الربط بين أى نموذج حضارى ونموذج آخر إذا ما لمسوا بينهما أى تشابه مهما كان كل منهما بعيداً عن الآخر .

ومن أبرز هذه الآراء المتطرفة ما نادت به المدرسة الانجليزية وعلى رأسها اليوت سميث *Elliott smith* وبرى *W. perry*.

يرى سميث فى كتابه هجرة الحضارة *The Migration of Culture, 1917* ويتفق معه برى فى كتابه أبناء الشمس *The Children of the Sun, 1923* أن المدنية الحقة لم تحدث سوى مرة واحدة فى التاريخ الانسانى ، وأن مصر بالذات كانت مركزا لهذا الحدوث ، ثم انتشرت هذه المدنية من مركزها هذا إلى أنحاء العالم الأخرى حتى ما كان منها بعيدا عن هذا المركز كالمكسيك.

وأمريكا الوسطى،ولقد أمكن تتبع انتشار النماذج الحضارية الهامة التى نشأت فى مصر ومنها على سبيل المثال عبادة الشمس وإقامة التماثيل الكبيرة وبناء الاهرامات وتحنيط الموتى والتنظيم الثنائى للمجتمع بين مدنى ودينى ، ووضع أهمية كبرى للذهب والجواهر وخلاف ذلك من مظاهر حضارية تميزت بها مصر قديما .ويرى سميث أيضا أنه قبل نشأة وانتشار هذه الصفات المعقدة لم تكن شعوب العالم تعرف سوى الضرورى من المظاهر الحضارية مثل ما هو معروف حاليا بين سكان استراليا الأصليين،وأن انتشار هذه الصفات الحضارية المعقدة قد حدث عن طريق الغزوات المصرية فى كل الاتجاهات وما كان يصاحبها من ادخال مظاهر المدنية المصرية بصورة جزئية أو بصورة كاملة فى جميع الأماكن التى تميزت بهذه الصفات الحضارية المعقدة ، وهذا لم يمنع طبعا أن يكون هناك من الشعوب ما لم تصلها مظاهر هذه المدنية المصرية اطلاقا أو أن تكون قد وصلتها ثم اندثرت فيما بعد .

وإذن فحسب رأى سميث يعتبر العالم كله منطقة أو مساحة حضارية واحدة توضع مصر فى مركزها كحضارة أساسية ، فاذا ما وجد تشابه بين المناطق المختلفة كان هذا عن طريق الهجرة والانتشار مهما كان بعد المسافة بينها ، كما هو الحال فى التشابه الموجود بين نماذج الحضارة المصرية القديمة والنماذج الحضارية لقبائل المايا *Mayas* فى المكسيك وقبائل الازتك *Aztecs* فى المكسيك أيضا . ويبدو هذا التشابه واضحا بنوع خاص بين الاهرامات المصرية واهرامات المايا والازتك ، مما جعل سميث يرى أن حضارة المايا والازتك قد تأثرت قطعا بالحضارة المصرية عن طريق الهجرة والانتشار على الرغم من طول المسافة التى تفصل بين مصر والمكسيك وبنوع خاص فى العصور القديمة وحيث

يضاف إلى طول المسافة صعوبة الاتصال بينهما لعدم وجود وسائل النقل والاتصال المتوفرة حاليا .

واليوت سميث برأيه هذا يستبعد امكان قيام مظهر حضارى واحد أو شبيه بالآخر فى مكانين مستقلين بطريقة تلقائية فى كل منهما ، أى دون أن يكون أحدهما معتمدا على الآخر فى قيامه ، وأرى أن هذا يعتبر تطرفا واضحا لأن الانسان بطبيعته حيوان مفكر وليس غريبا أن يتحد فى تفكيره مع انسان آخر أمام موقف معين أو مشكلة بذاتها ، وقد لا تكون وحدة التفكير ضرورية ولكنها قد تحدث على أى الحالات ، ففكرة الشادوف مثلا كوسيلة لرفع الماء من مكان منخفض إلى مكان أكثر ارتفاعا قد تخطر على بال أى انسان تواجهه مشكلة رفع المياه ،وهو فى هذه الحالة ليس فى حاجة لان يستعير هذه الفكرة ، فاذا ظهر الشادوف فى أكثر من مكان ما أمكن الجزم بأنه قد ظهر أولا فى مكان بالذات ثم انتشر منه إلى باقى الامكنة الاخرى ،لأن نشأة هذا الاختراع تلقائيا فى أكثر من مكان ممكنة ، وما يقال عن الشادوف يمكن أن يقال على كثير من الاختراعات الاخرى كاستعمال الاسلحة المختلفة واستخدام القوس مثلا .

ولرالف بيلز *Ralph Beals* رأى فى مسألة التشابه الموجود بين الاهرامات فى المناطق الثلاث التى مثل بها اليوت سميث لتوضيح مبدأه فى الانتشار الحضارى . يقول بيلز أن التشابه الموجود بين هذه الاهرامات فى مصر والمكسيك يعتبر سطحيا إذا قيس بالاختلافات الجوهرية الاخرى كطريقة البناء مثلا ،وحيث نجد أن الاهرامات المصرية مدببة الشكل كما تتميز باحتوائها فى داخلها على عدد من الحجرات التى كانت تستخدم مقابر للملوك ، أما الاهرامات المكسيكية عند المايا والازتك فلم تكن مدببة القمة وإنما مسطحتها ، كما كانت هذه القمة

المسطحة تستخدم فى اقامة المعابد الصغيرة عليها أو لوضع موائد القرابين ، هـذا وتختلف الاهرامات المكسيكية أيضا فى ناحية أخرى هى بناء سلالم خارجية ضخمة للصعود عليها إلى قمة الهرم ، كما كانت الاهرامات نفسها صلدة لعـدم وجود غرف بها من الداخل إلا فى حالات نادرة ، ثم يضيف بيلز إلى ذلك أن بناء الاهرامات المكسيكية كان يتم على أساس تشكيل أحد الجبال لـكى يأخذ شكلا هرميا ، ثم تغطية هـذا الجبل بعد ذلك بالاحجار وهـذا يخالف طريقة بناء الاهرامات المصرية .

ويرى بيلز أن هذه الاختلافات فى الشكل والوظيفة تفوق كثيرا ما يمكن أن يـكون بين الاهرامات المصرية والاهرامات المكسيكية من تشابه سطحى ، كما توحى بأن الاهرامات المكسيكة ربما تـكون قد اخترعت مستقلة عن الاهرامات المصرية [١].

---

(١) *Rolph Beals & Harry Hoijer An Introduction to Anthropology (N. Y., 1954) p. 615*

## المدرسة الألمانية

تتفق المدرسة الألمانية فى تطرفها مع المدرسة الانجليزية وإن كانت أكثر منها اعتدالا ، ومن أبرز من ينضمون إلى هذه المدرسة وليم شميدت *Welhelm Schmidt* وفريتزجرابنر *Fritz Graebner* . ويطلق على هذه المدرسة *Kulturkreis* ( المدرسة الحضارية التاريخية ) .

يرى شميدت فى كتابه المترجم إلى الانجليزية بعنوان *The Culture Historical Method of Ethnology , 1939* أن الانتشار عملية ميكانيكية وهذ الرأى يذكرنا برأى ويسلر، الذى سبق أن تقدناه والذى يتجاهل العوامل الحضارية والاجتماعية التى تعمل على قبول أو رفض عملية الانتشار، ولكن مع ذلك نجد أن هذه المدرسة تختلف عن المدرسة الانجليزية فى أنها تضع فى الاعتبار عملية تقويم التشابه ، بين بعض الصفات المتناثرة والتى تنصل بعضها عن البعض الآخر المسافات الطويلة ، وهذه نقطة اختلاف هامة عن وجهة النظر الانجليزية التى ترى أن التشابه مهما كان سطحيا يعتبر دليلا على الارتباط بواسطة الانتشار

ويعتبر رأى المدرسة الحضارية التاريخية رأيا وسطا بين المدرستين السابقتين الامريكية والانجليزية لأنها ترى أن أغلب مظاهر الحضارة الحديثة إن لم يكن كلها ترجع إلى عدد محدود من المصادر الأصلية الموزعة فى أماكن مختلفة من العالم القديم ، وفى أزمنة مختلفة من العصور القديمة ، ثم انتشارها بعد ذلك من مراكز النشأة هذه، وكانت بذلك سببا بطريقة أو بأخرى فى نشأة الحضارات المتأخرة . ونقول أن رأيها رأى وسط لأن المدرسة الأمريكية ترى أن المظاهر الحضارية قد نشأت تلقائيا فى مناطق عديدة من العالم هى ما أطلقت عليه المساحات

الحضارية ، بينما ترى المدرسة الانجليزية أن النشأة التلقائية لم تحدث سوى مرة واحدة، فى الوقت الذى ترى فيه المدرسة الألمانية أن هناك عدد محدود من المصادر الأصلية ، هذا وتربط المدرسة الألمانية بين وحدة الانتشار ووحدة التاريخ .

ويمكن أن ننقد ما تفترضه هذه المدرسة على أساس أنه لا يوجد أى دليل مباشرة يمكن أن تثبت به وجود هذه النماذج الأصلية فى عصور ما قبل التاريخ ، وأن وجودها فى هذه العصور لا يمكن أن نلم به إلا عن طريق ما يمكن أن نخرج به من الدراسات المقارنة للحضارات الحديثة أو الحضارات التاريخية ، فاذا ما أخذنا حضارتين فى العالم الحديث مهما كانتا بعيدتين عن بعضهما ولاحظنا بينهما نفس النماذج الحضارية ، أعتبرت المدرسة الألمانية أن هذه الوحدة بين النماذج نتيجة لوحدة الانتشار بينهما وبارتباطهما بالتالى تاريخيا ، ويمكن أن تكون المدرسة على حق فى ذلك إذا كان الأمر فيما يتعلق ببعض النماذج التى تكون قد جاءت عن طريق الانتشار ويكون تمييزها سهلا ، ولكن قد يختلف الأمر فى منطقة أخرى تكون تأثرت بنفس النماذج عن طريق الانتشار أيضا ، ولكنها اختلفت عن المنطقة الأولى نتيجة لاختلاط نفس النماذج اختلاطا نشأ عنه تعديلا جوهريا فى النماذج الأصلية أو تجديدا لها فى بعض الحالات ، ويصبح الأمر نتيجة لذلك أن المنطقتين رغم اتحادهما تاريخيا إلا أن النماذج الحضارية فيهما تبدو مختلفة .

وأخيرا يمكن أن ننقد هذه المدرسة فى أنها تركز على عملية الانتشار كعملية ميكانيكية دون أن تراعى ما يمكن أن يكون هناك من تعديل مظهرى أو وظيفى للنماذج المستعارة ، هذا علاوة على أن أية بيانات تاريخية يمكن الحصول عليها لا يمكن لها إلا أن تزيد معلوماتنا عن الحضارة ولكنها لا تفسر بالضرورة نشأتها أو تحدد الظروف التى تتسبب فى التغير الحضارى .

وبهذا نكون قد استعرضنا آراء مدارس الانتشار الحضارى الثلاث، الامريكية والانجليزية والالمانية، وواضح من هذا العرض أنه على الرغم من اختلاف آراء هذه المدارس حول طريقة الانتشار إلا أنها تتفق كلها فى التركيز على الانتشار كعامل فى بناء الحضارة، كما أنها تتفق أيضا فى معارضتها لمدرسة التطور الحضارى فى أنها تعتبر التاريخ هو العامل الأساسى لتفسير المظاهر الحضارية وأن أية حضارة لا يمكن فهمها إلا إذا عرف تاريخها أو أمكن تخيله على الأقل :

# الفصل الرابع
# المبدأ الوظيفي

- مقدمة
- اساس النظرية الوظيفية
- نقد المدرسة الوظيفية

# المبدأ الوظيفي

***Functionalism***

**مقدمة :**

لم يكن علماء الأنثروبولوجيا الوظيفيون من أمثال راد كليف براون وبرونيسلو مالينوفسكى [1] وغيرهما هم أول من نبه الأذهان إلى التحليل الوظيفي للظواهر الاجتماعية وإنما سبقهم إلى ذلك علماء آخرون رائدون فى هـذا المجال وعلى رأسهم هربرت سبنسر الذى اعتبر المجتمع كائنا عضويا وظيفيا كما اعتبر تطوره بذلك امتدادا للتطور العضوى ، وأن اختلافه البنائى كلما ازداد وتعقد كلما ازداد وتعقد بالتالى الاعتماد الوظيفى المتبادل بين أعضائه . وسبنسر بهذه الآراء يكون قد نبه إلى استخدام مفهومى البناء والوظيفة فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية على الرغم مما وجه إليه من نقد بسبب اعتباره المجتمع كائنا عضويا .

وكما نبه سبنسر إلى هذا المفهوم الوظيفى نجد عالما آخر وقد توسع فى استخدام هذا المفهوم وركز على اصطلاح الوظيفة بالذات فى تحليله للظواهر الاجتماعية ، وهو العالم الفرنسى اميل دوركايم *Durkheim* .

---

( ١ ) مالينوفسكى هو أحد مؤسسى المدرسة الوظيفية ، ولد فى سنة ١٨٨٤ وتوفى سنة ١٩٤٢ م . ويعتبر أهم عمل ميدانى قام به هو دراسته فى جزر تروبرياند Trobriand Island بالمحيط الهادى خلال الحرب العالمية الأولى . وقد ضمن مالينوفسكى نتائج دراسته فى كتابين ، الأول : Argonauts of the Western Pacific 1922 وقد درس فى هذا الكتاب النظام الاقتصادى السائد فى هذه الجزر والذى ينبع من طبيعة الحياة فيها وهو نظام الكولا Kula . أما الكتاب الثانى فهو : Coral Gardens and their Magic, 1935 وقد درس فى هذا الكتاب اللغة السائدة لجزر التروبرياند وصلتها بالنواحى السحرية فيها : ومن كتبه التى نشرت بعد وفاته : The Dynamics of Cultural Change 1945

والواقع إن تفكير أميل دوركايم ودراسته العميقة للظواهر الاجتماعية عامة يعتبران نقطة تحول هامة فى تاريخ الانثروبولوجيا الاجتماعية وبنوع خاص ما تعلق بهذا التفكير من نظريات عامة نجدها واضحة فى كتبه الثلاثة الآتية :

*1 – De la Division du Travail Social, 1893.*

*2 – Les Règles de la Méthode Sociologiquie , 1895 .*

*3 – Le Suicide , 1897 .*

وتتميز هذه الكتب الثلاثة بابراز ناحية هامة فى علم الاجتماع اشتهر بها أميل دوركايم ، وتتخلص هذه الناحية فى أن الظواهر الاجتماعية لا يمكن لها أن تتأثر إلا اجتماعيا ، كما لا يمكن تفسيرها إلا على أسس اجتماعية . ولقد ظهر اصطلاح *Sociologism* ليعبر عن هذا المعنى الذى كان له أثره الواضح فى توجيه الاذهان إلى الوظيفة والبناء الاجتماعى ، وهاتان الناحيتان تمثلان روح المدرسة الوظيفة الانثروبولوجية وأهم ما ركزت عليه ، وكان لاميل دوركايم أثره الواضح على كل من راد كليف براون وبرونيسلو مالينوفسكى حتى يمكن أن نقول أن مؤسس المدرسة الوظيفية هو اميل دور كايم ولكن بطريق غير مباشر .

ويعتبر ظهور المبدأ الوظيفى رد فعل للدراسات الانثروبولوجية التى تميز بها القرن التاسع عشر ، إذ كان ظهور هذا المبدأ الوظيفى ضرورة لتحاشى نقط الضعف التى تميزت بها دراسات القرن التاسع عشر والتى يمكن اجمالها فيما يلى :

١ — اتجهت هذه الدراسات إلى اعتبار الحضارة ، أية حضارة ، لا تخرج

عن كونها تجمعا لعدد من النماذج الحضارية التى تختلف فى النشأة والتاريخ، وأن تجمع هذه النماذج ليس إلا نتيجة لتتابع الاحداث التاريخية ، دون أن تهتم هذه الدراسات بتوضيح العلاقة الوظيفية بين هذه النماذج أو بالتجمعات الحضارية .

٢ — كان علماء القرن التاسع عشر يحصلون على البيانات التى يريدونها عن المجتمعات البدائية بطريق غير مباشر أى دون أن يزوروا هم أنفسهم هذه المجتمعات ودون أن يعيشوا فيها ، وكانت طبيعة دراستهم تسمح بذلك لأنهم كانوا يعالجون موضوعات كالعادات أو التصرفات الحضارية الاخرى ، ويحاولون تصنيفها وتوضيح أوجه الشبه والاختلاف فى هذه العادات أو التصرفات بين مجتمع وآخر ، أو توضيح مراحل التقدم فى المجتمع الانسانى . ولم تكن هذه الدراسة وبهذه الطريقة تكفى اطلاقا ، لأن أى مظهر اجتماعى سواء أكان عادة أو عقيدة أو نظاما لا يكون ذا معنى إذا درسناه بعيدا عن الشكل الاجتماعى الذى يوجد فيه .

٣ — اتجهت هذه الدراسات إلى استخدام طريقة المقارنة كوسيلة لاعادة بناء التسلسل التاريخى عندما لا تتوفر الوثائق التى تسمح بهذا البناء ، كانوا يلجأون فى ذلك إلى مقارنة عدة صور من عادة معينة أو نظام معين تكون قد جمعت عشوائيا من انحاء متفرقة من العالم .

وعلى أساس نقط الضعف السابقة ظهر المبدأ الوظيفى الذى يرى أن مثل هذه الدراسات غير كاف لانها تقوم على تجزئة النسق الاجتماعى فى الوقت الذى يجب أن يدرس فيه هذا النسق ككل وفى نفس المكان الذى يوجد فيه . ومن هنا يبرز علم الانثروبولوجيا الوظيفية بأهم فكرة ارتبطت به ، وهى فكرة النسق الاجتماعى *Social system* وضرورة دراسة الحياة

الاجتماعية للمجتمعات البدائية بطريقة منظمة وكما هى موجودة فعلا فى المجتمعات الحاضرة ، وهذه هى أبرز النواحى التى تميز بين الانثروبولوجيا الاجتماعية فى القرن العشرين وبين الاثنولوجيا فى القرن التاسع عشر ، وهى الناحية التى تتمثل فى عدم تجزئة الناحية موضوع الدراسة عن الوسط الاجتماعى ككل ، كما تتمثل أيضا فى الجمع بين الدراسة المكتبية والدراسة الميدانية وعلى أن يقوم الباحث بجمع البيانات بنفسه أو باشرافه .

أما فيما يتعلق بطريقة المقارنة فقد اتجهت فى الدراسات الوظيفية اتجاها يختلف عنه فى الدراسات الاثنولوجية ، اتجاها يتفق مع ما تراه المدرسة الوظيفية من أن النسق الاجتماعى حقيقة أساسية وأن النشاط الاجتماعى يحدد على أساس وظيفته فى هذا النسق الاجتماعى ، فاذا ما قورنت النظم كان على هذه المقارنة أن تقوم على أساس أن هذه النظم جزء من النسق الاجتماعى وعلى أن تكون المقارنة لهذه النظم فى علاقتها بالكل الاجتماعى للمجتمعات التى توجد فيها . وعلى هذا الاساس فعلم الانثروبولوجى الحديث لايقارن العادات نفسها وإنما يقارن العادات فى صلتها بنسق اجتماعى معين ،أى أنها مقارنة تركز على العلاقات التى تربط هذه العادات وليس على العادات نفسها ، ذلك لأن العادات قد تتحد أو تتشابه فى مظهرها إلا أنها تختلف اختلافا واضحا من ناحية وظيفتها فى النسق الاجتماعى ، ويمكن أن نمثل لهذه الناحية باحتفالات الموالد فى مصر ، وحيث نجد أن مظهرها ترفيهى فى الوقت الذى نجد لها فيه وظيفة دينية .

وثمة ناحية أخرى يختلف فيها علم الانثروبولوجيا الاجتماعية عن الاثنولوجيا وهى موقف كل منهما من طبيعة النسق الاجتماعى نفسه ، وما يصاحب هذا الموقف من اختلاف نظرة كل منهما إلى الاتجاه التاريخى والدراسات التاريخية ،

فالوظيفيون يعتبرون الانساق الاجتماعية أنساقا طبيعية تخضع لقواعد اجتماعية معينة ، وهذا الاعتبار يستبعد بالتالى وجود أية صلة علمية بينها وبين تطورها التاريخى . وهذا يعنى أنه ليس من شأن الانثروبولوجيا الاجتماعية تتبع مراحل التطور التاريخى للمجتمع موضوع الدراسة لان الالمام بهذه الناحية لن يساعد فى شىء على فهم وظيفة هذه النظم ، وهذه الفكرة تعبر عن منطق الوظيفيين وإيمانهم بأن المجتمعات أنساق طبيعية وأن دراسة تاريخها لا يفيد فى شىء فى دراستها علميا .

ومما سبق نرى أن المذهب الوظيفى يتجه إلى اعتبار أية حضارة كلا وظيفيا متكاملا *Functianning Integrated Whole* وهى أشبه ما تكون بذلك بالكائن العضوى ، ولا يمكن والامر كذلك فهم أى جزء من هذا الكل إلا فى صلته بالكل نفسه ، فوظيفة أى نموذج حضارى فى النظام الاجتماعى أو النسق الاجتماعى ككل هى التى تفسر وتوضح حقيقته . وعلى هذا الاساس فلا يمكن فهم النموذج الحضارى عن طريق تتبع تاريخ نشأته أو انتشاره وإنما بواسطة الطرق التى يتأثر بها والطرق التى يؤثر بها فى العناصر الاخرى داخل النسق الحضارى . ووجهة النظر هذه توضح ثانوية دور التطور التاريخى فى دراسة الحضارة ، وانه بدلا من الرجوع إلى التاريخ يجب أن تدرس الحضارة فى وجودها فى فترة زمنية معينة وليس فى حدود نموها التاريخى او التطورى ، وان تفسير الحضارة نفسها لا يكون إلا عن طريق الوظيفة الأخيرة التى تفسر وجودها بين الناس .

# أساس النظرية الوظيفية

إذ استعرضنا وجهة نظر مالينوفسكى فى هذه الناحية نجد أنه لا يرى فى ذلك أية مشكلة تاريخية أو مشكلة تطورية فهو يعتبر أن الحضارة بالنسبة للمذهب الوظيفى تمثل كل ما يحتويه المجتمع من عقائد ومبادىء وعادات وأدوات تكون فى مجموعها الجهاز الذى يوجد فيه الانسان فى وضع لا بد معه أن يكيف نفسه مع هذا الجهاز الكلى لكى يحقق حاجاته الضرورية ، ويقول مالينوفسكى فى هذا المعنى :

*"To the functionalist, culture, that is the whole body of implements, the charters of its social groups, human ideas, beliefs and customs, constitutes a vast apparatus by which man is put in a position the better to cope with the concrete, specific problems which face him in his adaptation to his environment in the course of the satisfaction of his needs."*(1)

ويرى مالينوفسكى أن النظرية الانثروبولوجية يجب أن تقوم على أساس من الحقائق البيولوجية فمن البديهيات أن الكائنات الانسانية يجب أن تتغذى وأن تتناسل وأن تتزود بالمأوى والهواء وعناصر الراحة والنظافة التى يمكنها عن طريقها مواصلة حياتها ، ولكى يتمكن الجنس البشرى من أن يستمر . ولا يرى مالينوفسكى كما يرى غيره من أمثال دوركايم ضرورة فصل علم وظائف الأعضاء عن علم الاجتماع لأن هذا الفصل من وجهة نظره مستحيل ، فالانسان على الرغم من أنه حيوان إلا أنه حيوان لا يعيش على أساس من الدوافع الجسمية

---

(1) *Br. Malinowski, the Dynamics of Culture Change (New Haven, U. S. A., 1949) p. 42*

فقط وانما على أساس من هذه الدوافع الجسمية مختلطة أو معدلة فى الوقت نفسه بالدوافع الحضارية ، فالغذاء الذى يعيش عليه سكان وسط استراليا أو جماعات البوشمن الافريقية لايصلح للاوربى ، فاذا ما أراد الاوربى أن يعيش على هذا الغذاء كان لابد أن يصاحب ذلك تعديل فى تركيبه الجسمى عن طريق بعض العمليات الثانوية الشاقة ، ومايتعلق بالغذاء يمكن تطبيقه على عملية استمرار النوع أو التكاثر الانسانى ، وهذه العملية لايمكن أن تتم فى المجتمع الانسانى عن طريق مجرد الاتصال العفوى بين الذكر والانثى وانما يكون ذلك عن طريق هذا النظام الحضارى المعقد الذى نسميه الزواج ، وإذن فالقرابة والاتصال الجنسى أشياء لاتحددها الدوافع الجثمانية وحدها وانما يكون ذلك فى ترابط هذه الدوافع بالظروف الحضارية بقصد تحقيق الرفقة والتعاون الاقتصادى وتحقيق الوضع الاجتماعى والاتفاق الروحى . وإذن فالدافع الجنسى لايكفى وحده لتزويد المجتمع بأفراد جدد لأن تحقيق هذا يخضع لعدد من النواحى الحضارية الأخرى التربوية والاقتصادية والقانونية والخلقية وغيرها . ومايقال عن الدافع الجنسى يمكن أن يقال أيضا على العمليات البيولوجية الأخرى كالتنفس وهضم الطعام والنوم والتعرض للشمس والرياح والتى نراها فى النوع الانسانى وقد دخل فى تعديلها عدد المظاهر الحضارية البحته

وعلى أساس وجهة نظر مالينوفسكى السابقة تبدو الحضارة كجهاز مكيف ضخم يقوم عن طريق التعويد وتزويد المهارات وتعليم المعايير وتنمية الاذواق بمزج التربية بالاتجاهات الطبيعية « *Amalgamates nurture with Nature* » ونجد أنفسنا بذلك أمام كائنات لايمكن تحديد سلوكها بالدراسة التشريحية أو أو الجسمية فقط وانما بالدراسة الاجتماعية أيضا . وهذا يعنى أن الانسان يختلف عن الحيوان لأنه لايحقق حاجاته الجسمية بطريق مباشر ، فالانسان

مثلا لا يحصل على غذائه مما هو موجود فى الطبيعة بطريقة مباشرة ، وانما عن طريق عدد من العمليات البسيطة أو المعقدة تتمثل فى الاستغلال الاقتصادى للبيئة التى يوجد فيها ، وهذه ناحية واضحة حتى بين أبسط الشعوب التى تعيش على الجمع والتى تنظم طرقها فى استخراج الجذور والبحث عن الحيوان والثمار التى تأكلها والتى تحصل على غذائها وتوزعه وتستهلكه فى جماعات منظمة . ونفس الظاهرة نجدها عند الانسان عندما نجده يؤمن نفسه ضد الرياح وحرارة الشمس بتصرفات حضارية معينة . كما يحمى نفسه من البرد باشعال النيران أو ارتداء الملابس ، هذا بالاضافة إلى أن الانسان لايعالج مشاكله منفردا وانما ينتظم داخل اسرة معينة ويعيش فى مجتمع له دستوره القبلى ويعترف بمبدأ السيادة والقيادة التى تحددها جميعا المواثيق الحضارية .

ويحصل الانسان على المهارات والخبرات الفنية ويمارس تنظيمه الاجتماعي على أساس تميز به وحده دون سائر الكائنات الحية، ويتمثل هذا الاساس فى استخدام الرموز ، وهذه الناحية جعلت للانسان وضعا خاصا فى المملكة الحيوانية . وقد ساعده على ذلك ماتميز به من تركيب مخى خاص اختلف به عن سائر الحيوانات الاخرى وتعتبر اللغات هى أبرز أشكال الرموز التى يستخدمها الانسان ، كما يعتبر التفكير المعنوى أو المجرد عجلة المعرفة والعقيدة وأساس أى تنظيم يمارسه الانسان . ومن خلال استخدام اللغة يمكن للعادات وللمهارات أن تستمر من جيل لآخر ، كما يمكن للجيل الحاضر أن يتجنب الاخطاء التى مر بها الجيل السابق فيستفيد بذلك ويوفر على نفسه كثيرا من الجهد والوقت.

ويلخص لنا مالينوفسكى كل ماسبق فى هذه السطور التالية :

*" We have started from the axiom that culture is an instrumental reality, an apparatus for the satisfaction of fundamental*

*needs, that is, organic survival, environmental adaptation, and continuity in the biological sense. to this we have added the empirical corollary that, under conditions of culture, the satisfaction of organic needs is achieved in an indirect, round-about manner. man uses tools; covers himself with clothes, and shelters himself in caves or huts, windshields or tents. He uses fire for warmth and for cooking. In this, he transforms his anatomical endowments in all his contacts with the phisical milieu. He does this not alone but organized into groups. Organization means the tradition of skills, of knowledge, and of values.*"(1)

وكل ماسبق يدفعنا إلى القول أن التحقيق الحضارى أو الاستجابة الحضارية لهذه الحاجات البيولوجية الاساسية قدفرض على الانسان عددا من الضرورات الثانوية التى انبثقت عن هذه الحاجات الانسانية . وتتمثل هذه الضرورات فى عدد من النواحى ابرزها نشأة نوع من التنظيم الاقتصادى ، بسيطا كان أو معقدا ، ومثل هذا التنظيم لاغنى عنه لاى مجتمع انسانى ، وهو يضم فى العادة عددا من القواعد التقليدية والفنية وانساقا للملكية وطرقا لاستخدام واستهلاك الأشياء . ويؤمن الاتجاه الوظيفى بأهمية الدراسة المقارنة وضرورة دراسة انساق الانتاج والتوزيع والاستهلاك حتى فى أكثر المجتمعات بدائية ، على أن تتجه هذه الدراسة أساسا إلى معرفة المبادىء التى تقوم عليها ظواهر كالملكية، وبنوع خاص ملكية الاراضى ، وتقسيم العمل والثروة وقيمة الاشياء ، والقيمة هنا هى المحرك الأساسى للجهود الانسانية المنظمة والمبدأ الذى يحث أفراد المجتمع على التعاون والانتاج وتحقيق الثروة ومايحيط بكل هذا من عقائد

---

(1) Malinowski, op. cit, p.44.

دينية وعاطفية ، وكل هذا نجده فى المجتمعات الانسانية جميعا حتى تلك التى لاتزال فى أولى مراحل تقدمها .

ومن الضرورات الثانوية التى انبثقت عن الحاجات الأساسية وأخذت طابعاً عالميا أيضا ، تلك الضرورة التى توصف بأنها معيارية ، فالأنسان يمكنه أن يتحكم فى البيئة التى تحيط به عن طريق التعاون ، وحياة التعاون تعنى الحياة المشتركة ، وكل من التعاون والحياة المشتركة يتطلب التضحية والعمل المشترك وتفضيل المصلحة المتبادلة على المصلحة الفردية ، ونجد اجمالاأن التعاون والحياة المشتركة يتطلبان تحديد قواعد معينة لتنظيم السلطة والضبط الاجتماعى بقصد تنظيم الدوافع الجنسية واستخدام الطعام وامتلاك الثروة وارضاء حاجة الانسان إلى النجاح . وعلى ذلك فقد كان تحديد مرتبة الانسان أو وضعه فى مجتمعه ، وتحديد القيادة والسلطة والتقسيم الطبقى من النواحى الاجتماعية التى اهتم بها الانسان والتى لابد قد عرفها فى أقدم مجتمعاته ، وإن كانت كل هذه المظاهر قد ارتبطت فى المجتمعات الانسانية الأولى بالسن والنوع ومركز الأسرة وهى أسس قد تغيرت فى كثير من المجتمعات الحاضرة .

وتنحصر السلطة دائما فى رئيس الأسرة وكبار السن فى العشيرة أو فى قائد جماعة السحر أو الجماعة التوتمية ، وكانت القواعد القبلية تدور حول مبادىء هامة تتمثل فى كل مايتعلق بالعمل المشترك والزواج والأبوة والتنظيم الاقتصادى والطقوس الدينية . وهكذا نجد أن المظهر المعيارى القانونى للمجتمع هو الضرورة الثانية التى انبثقت عن الحضارة .

أما الضرورة الثالثه التى يراها مالينوفسكى فهى ماتسمى بالتنظيم السياسى والتى تقترن دائما بشكل أو بآخر من القهر أو السلطة بقصد تأمين الأفراد

داخليا وتأمينهم ضد العدوان عليهم من الخارج ، وما من مجتمع فى العصور القديمة أو الحديثه إلا وقد وضع لنفسه تنظيما معينا بقصد حمايته داخليا وخارجيا .

وأخيرا يناقش مالينوفسكى الضرورة الرابعة التى تفرضها الحضارة على المجتمعات الانسانية وهى تلك التى تتعلق بالثقافة والتعليم ، وتضم كل ما تعلق بالطرق والوسائل التى يمكن بها للتراث الاجتماعى من أن ينتقل من جيل لآخر ، ويتطلب منا الاتجاه الوظيفى فى دراسة هذه الضرورة البحث فى عدد من النواحى التى تتصل بها مثل دراسته تاريخ الحياة وجماعات اللعب وحفلات التنصيب والتدريب على الحرف وقواعدها والمعايير الاجتماعية .

هذا ولا تقتصر الضرورات الحضارية من وجهة نظر مالينوفسكى عل هذه الضرورات الأربعه فقط وإنما هذه هى أظهرها فقط ، لأن هناك ضرورات حضارية أخرى كثيرة تقوم إلى جوار هذه الضرورات الرئيسية .

وهكذا نجد أن مالينوفسكى قد ربط فى دراسته بين حاجات الانسان البيولوجية وبين مظاهره الحضارية والتى لاتخرج عن كونها إستجابة أوضرورة لتحقيق هذه الحاجات ، وواضح أن هذه الضرورات الأربع التى حددها مالينوفسكى لاتختلف كثيرا عن النظم الاجتماعية الرئيسية التى تتميز بها المجتمعات الانسانية عامة ، قديمها وحديثها .

ويشترك راد كليف براون مع مالينوفسكى فى أن الانثروبولوجيا الاجتماعية تخضع للقوانين الطبيعية ، وفى توجيه الاهتمام إلى ضرورة دراسة وظيفة الحضارة وفى استبعاد التاريخ كوسيلة لفهم أية ظاهرة حضارية ، أما اختلافهما عن بعضهما فيتمثل فى أن راد كليف براون يركز اهتمامه على دراسة المجتمع أكثر من تركيزه على الحضارة ذلك لانه يرى أنه حين يتكلم عن التكامل الاجتماعى يفترض

أن وظيفة الحضارة ككل هى ربط أفراد الكائنات البشرية وتوزيعهم فى أبنية اجتماعية تتمتع بدرجة معينة من الثبات والاستقرار ، أى فى أنساق ثابتة تتألف من جماعات وزمر تحدد علاقة هؤلاء الأفراد بعضهم ببعض وتنظيمها ، كما تحدد علاقتهم بالبيئة الطبيعية مما يدعو فى النهاية إلى قيام حياة اجتماعية متماسكة.

ويتضح لنا مدى اهتمام راد كليف براون بدراسة المجتمع نفسه عند ما نجده يستبعد إمكان قيام عالم مستقل للحضارة ، وهو يسأل إن كان فى الامكان قيام علم للحضارة ، ثم يرد على هذا السؤال بقوله :

*"You cannot have a seience of culture. You can study culture only as a characteristic of a social system. Therefore, if you are going to have a science, it must be a science of sociale systems."* (١)

ويبرر راد كليف براون هذا الاتجاه بأننا إذا إفترضنا وجود علم للمجتمع فان المشكلة الأولى التى تواجه هذا العلم هى ماتعلق بدراسة طبيعية الترابط الاجتماعى *Social Coaptation* وما يتعلق به من مجموعة العلاقات التى تربط بين الافراد والتى يطلق عليها فى مجموعها « البناء الاجتماعى » ، كما يرى أن الترابط الاجتماعى فى أى مجتمع عن كونه توحيداً لسلوك الأفراد فى المجتمع . ويميز رادكليف براون بين هذا التوحيد فى المجتمع الانسانى والمجتمع الحيوانى ، فيرى أنه يأتى فى المجتمع الحيوانى عن طريق الغريزة ، أما فى المجتمع الانسانى فيكون عن طريق الحضاره ، وعلى ذلك فلا يمكن معالجة أى من البناء الاجتماعى أو الحضارة علميا إذا فصلناهما عن بعضهما .

وينتهى راد كليف براون إلى أنه على الرغم من إمكان قيام دراسات علمية لبعض المظاهر الحضارية ، كاللغة أو الدين أو التكنولوجى ، إلا أننا إذا أردنا الخروج

---

(١) *Radcliffe - Brown, op. cit., p 106*

بتعميمات عن هذه المظاهر ما أمكن لنا أن نصل إليها إلا على أساس صلة كل من هذه المظاهر بالبناء الاجتماعى الذى يعمل على استمرار الحضارة نفسها .

ويرى رادكليف أن المجتمع كالكائن العضوى يتكون من أعضاء أو أجزاء تعتمد على بعضها وتتداخل وظائفها معا ، وكما تعتمد وظائف أجزاء الكائن العضوى على بعضها لكى يعيش ككل ، فان القواعد والنظم التى توجد فى المجتمع تساهم هى الأخرى فى بقاء واستمرار الكائن الاجتماعى ، وهذه هى الوظيفة الأساسية إن لم تكن الوحيدة لهذه القواعد والنظم ، وهى فى مجموعها تؤكد بقاء المجتمع نفسه .

وإذن فرادكليف براون لا يحاول كما فعل مالينوفسكى تفسير المجتمع أو الحضاره بالرجوع إلى أساس بيولوجى ، وانما نجده قد اهتم بدلا من ذلك بالدراسة المقارنة للمجتمعات نفسها كموضوع فى حد ذاته للأنثروبولوجيا الاجتماعية ، كما آثر فى الوقت نفسه أن يبتعد كما فعل مالينوفسكى عن كل من الاتجاهين التاريخى والتطورى .

وقد اعتمد رادكليف براون للوصول إلى غايته على :

١ — الوصف الدقيق لوظائف البناء الاجتماعى كما توجد هذه الابنية فى أجزاء مختلفة من العالم ، أى وصف القواعد والنظم التى توجد فى المجتمعات الانسانية مع الاهتمام بدورها فى مساندة البناء الاجتماعى وبقائه .

٢ — محاولة الوصول إلى القوانين العامة التى تختفى وراء الظواهر الاجتماعية بطرق علمية تسير جنبا إلى جنب مع تلك التى تختفى وراء الظواهر الطبيعية .

## نقد المبدأ الوظيفي

إذا أردنا أن ننقد المدرسة الوظيفيه فلابد أن يكون هذا النقد على ضوء موقف هذه المدرسة من المدرسة السابقة لها وهى المدرسة التطورية لان ظهور المدرسة الوظيفية كان رد فعل لما نادت به المدرسة التطورية بل إن المدرسة الوظيفية قد قامت لكى تتجنب العيوب التى صاحبت الدراسات التطورية والتى سبق أن أشرنا إليها فى فصل سابق من هذا الكتاب . وإذن فإلى أى مدى وفقت المدرسة الوظيفية فى هذه الناحية ؟

ونقدنا إذن لن يخرج عن أن يكون إجابة على هذا السؤال ومقارنة بين آراء كل من المدرستين ، وفى سبيل هذه المقارنه نجد أن المدرسة التطورية إذا كانت قد ركزت على أهمية الجانب التاريخى فى الدراسات الانثروبولوجية فان المدرسة الوظيفية قد استنكرت هذا الاتجاه لعدم أهميته من وجهة نظرها فى دراسة النسق الاجتماعى ، ونحن إذن أمام اتجاهين ليس من السهل أن نحدد أيهما أصح ولكن من الواضح أن أية دراسة تتعلق بالمجتمع تكون أكثر اكتمالا لو صاحبها الاساس التاريخى لموضوع الدراسة ذلك لأن عرض الاساس التاريخى يجعلها أكثر وضوحا هذا علاوة على أن الجانب التاريخى ربما أمكن بواسطة تفسير بعد النواحى التى قد تكون غامضة أو غير واضحة وقت قيام الدراسة ، والمعروف أنه ليس أفضل من التاريخ فى القاء الضوء على الحاضر وتفسيره .

والموضوع إذن هو موضوع التطرف الذى تتميز به كل من المدرستين ، تطرف نحو الاتجاه التاريخى فى حالة المدرسة التطورية وتطور نحو الاتجاه

الوظيفي فى حالة المدرسة الوظيفية ، فالمدرسة التطورية كان كل مايهمها هو تتبع النظام الاجتماعى موضوع الدراسة منذ نشأته حتى اليوم الذى تقوم فيه الدراسة ، وعلى ذلك كان البحث يمتد ليس فقط إلى أقدم عصور التاريخ بل وإلى عصور ما قبل التاريخ أيضاً، تلك العصور التى نشأت خلالها النظم الاجتماعية الأساسية على الأقل وهى النظم التى ركز عليها العلمــاء التطوريون مثل نظم الزواج والأسرة والدين ، وكان حسب الباحث منهم أن يصل إلى تطور النظام حتى إذا كانت النتائج التى يتوصل إليها مما ينقصها الاثبات العلمى الصحيح .

أما عن رأى المدرسة الوظيفية عن الاتجاه التطورى السابق فهو أنه جهد ضائع لا فائدة منه ، إذ ما فائدة الـكشف عن مراحل تطور النظام الاجتماعى ؟ أليس من الأفضل أن نـكشف عما يؤديه النظام الاجتماعى من وظائف فى الوقت الحاضر كجزء من كل اجتماعى عام هو البناء الاجتماعى أو النسق الاجتماعى ؟ ومن هنا جاء اهتمام المدرسة الوظيفية بالبناء الاجتماعى فى دراستها للنظم الاجتماعية .

وإذا استعرضنا كلا من الاتجاهين السابقين وجدنا فعلا أن الدراسة الوظيفية أكثر عمقا وأكثر ممارسة للأسلوب العلمى ، أولا من ناحية تجاهلها البحث فى نواح ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ وما ينقصها تبعا لذلك مما يعمل على إثباتها أو تدعيم النتائج التى يتوصل إليها ، وثانيا من ناحية التركيز الدراسات الميدانية وهى ناحية لم تـكن قـد استكملت تماما بين علمـاء المدرسة التطورية .

ولـكن مع ذلك يمـكن أن تؤخذ على المدرسة الوظيفية نقط الضعف التالية :

١ — ركز الوظيفيون اهتمامهم على دراسة البناء الوظيفي للمجتمع والعلاقات السائدة في داخله دون أن يضيعوا أي وقت لتحليل الأساس أو التطور التاريخي أو البحث عن العلاقة التي تربط نماذج حضارية معينة في مساحة معينة بمثيلتها في مساحة أخرى اكتفاء بدراستهم المركزة للتصرفات الحضارية في مجتمعات بذاتها اختاروها لهذا الغرض .

٢ — يمكن للدراسات الوظيفية أن تعتبر نوعا من التشريح الاجتماعي والفسيولوجي، ولكنه تشريح تنقصه الصلة بعمليات النشأة والتكوين والتطور، وهذه كلها نواحي تهتم بها العلوم الاخرى عامة ، ويكفي أن نعلم أن هذه النواحي الثلاث هي أساس الدراسة في علم الانثربولوجي الجسمي ، فهل ننكر على هذا العلم مجال دراسته اكتفاء بامكان دراسة الانسان الحالي بالوضع الذي هو عليه دون الرجوع إلى ما كان عليه هو وأجداده فيما مضى أو أن نتجاهل الدراسات والابحاث التي تقوم على بقايا الانسان القديم لانها لا تفيدنا في شيء في دراسة الانسان المعاصر ؟ الواقع ان الانثروبولوجيا الاجتماعية يجب أن تضع في اعتبارها أيضا هذه العوامل التاريخية .

٣ — يؤخذ على المدرسة الوظيفية أيضا فشلها في ناحية أخرى تتمثل في عدم تحديد أي العوامل أساسي وأيها ثانوي في العملية الوظيفية وذلك حينما نجد بعض الوظيفيين يركزون على أهمية عوامل معينة ويتجاهلون نواحي أخرى ، فقد يركزون مثلا على أهمية نظام القبيلة أو نظام النسب في العملية الوظيفية للتنظيم الاجتماعي ويتجاهلون في الوقت نفسه عوامل أخرى كالنشاط اليومي الذي يقوم به أفراد الجماعة في الزراعة أو الرعي ، وهنا نعود فنقول أنه اذا أراد الوظيفيون أن يضعوا أساسا لما هو رئيسي وما هو ثانوي

فى البناء الحضارى لتتطلب الأمر الاهتمام بعملية التغير وما تتطلبه دراستها من وضع أهمية للعلاقات التاريخية بالتالى .

والنقد السابق وإن كنت قد عرضته فى ثلاث نقط فان ذلك من قبيل التوضيح والتبسيط فقط لان النقط الثلاث إنما تدور كلها فى الواقع حول ناحية واحدة هى خطأ المدرسة الوظيفية فى تجاهلها للأساس التاريخى فى دراستها للظواهر والنظم الاجتماعية .

مطبعة دار نشر الثقافة
٢١ شارع أحمد صدقي بالفجالة


Bibliotheca Alexandrina
06860042